

الفضائل السبع

بصيرة القلب

في خضم هذه الفتن الشديدة المدهمة، وتلك الشهوات المحيطة المضلة، وتلك الشبهات الحاقدة المغرضة التي تهدف إلى هدم الدين، واستئصال شأفة المسلمين يكون من أهم عوامل الاستقامة والثبات والسداد بصيرة تهدي، ونور في القلب يبدد كل ظلمة، وفهم سديد يمحق كل شبهة، ويعصم صاحبه من الزلل، ويحفظه من نزغات الشياطين ووساوس المغرضين، ومن مكر كل خبيث من أعداء هذا الدين، ومن آتاه الله تلك البصيرة عرف الحق وآثره واستقام عليه ولم يرض به بدلاً، ولم يبيع منه حولاً، ولم يقبل فيه تفريطاً، ولم يستغن عنه طرفة عين؛ فما هي البصيرة؟

حقيقة البصيرة

البصيرة هي قوى القلب المدركة، وفطنته ووعيه ورؤيته للأشياء على حقيقتها تلك التي تجعل الإنسان يعطي كل شيء حجه ويعطي كل ذي حق حقه والبصيرة للقلب كالبصر للعين قال الليث: البصيرة اسم لما اعتقد في القلب من الدين وتحقيق الأمر، وقيل: البصيرة الفطنة^(١)، وقال ابن الأثير: العمه في البصيرة كالعمى في البصر^(٢)، وفي المعجم الوسيط: البصيرة قوة الإدراك والفطنة والعلم والخبرة ويقال فراسة ذات بصيرة صادقة، وفعل ذلك عن بصيرة أي عن عقيدة ورأي، والحجة والرقيب والعبرة والستارة تغطي الباب وكل ما اتخذ جنة كالدرع والترس وغيرهما، والقليل من الدم يستدل به على الرمية وجمعها بصائر وبصار^(٣).

(١) «لسان العرب» مادة (بصر) (٦٤/٤) ط. دار صادر.

(٢) المصدر السابق مادة (عمه)، (٥١٩/١٣).

(٣) «المعجم الوسيط» مادة (بصر)، (٥٩٠/١) ط. دار الدعوة.

يقول الإمام ابن القيم عليه رحمة الله: البصيرة نورٌ يقذفه الله في القلب يرى به حقيقة ما أخبرت به الرسل كأنه يشاهده رأي عين فيتحقق بذلك انتفاعه بما دعت إليه الرسل وتضرره بمخالفتهم وهذا معنى قول بعض العارفين: البصيرة تحقق الانتفاع بالشيء والتضرر به وقال بعضهم: البصيرة ما خلصك من الحيرة إما بإيمان وإما بعيان^(١).

ومن هذا نعلم أن البصيرة تعني رؤية الأشياء على حقيقتها وصحة تصورها ودقة الفهم وسداده مع العمل على ما يجلب المنافع ويدفع المضار ويحقق للمرء مراده.

أهميتها وحاجتنا إليها

من عاش حياته بغير بصيرة فهو إمعة جاهل تائه متحير، لا يعرف الحق من الباطل، والسنة من البدعة فهو يميل مع كل ناعق، ويتبع كل دعوي، ويتلون مع كل متفلت مفتون حاله كحال الأعمى الذي يقاد ولا يدري أين يذهب به فالهلاك إليه أسرع والضلال إليه أقرب، ولذا كان لزاماً علينا أن نستبصر بديننا وأن نحرر مواقع أقدامنا وأن نسير في طريق الهداية المنير على بصيرة من أمرنا ومما يبين لك أهمية البصيرة في حياتنا ما يلي:

أولاً - البصيرة أساس للدعوة الربانية:

من الأسس الركينة والمعالم القويمة للدعوة النبوية المباركة أنها دعوة على بصيرة وإذا فقدت الدعوة هذا الشرط صار أهلها في تيه وانحراف وتخط وضلال ولا تكون الدعوة قط صالحة خالصة سديدة رشيدة إلا إذا تحقق فيها هذا الشرط العظيم يقول ربنا العليم الحكيم لنبهنا الكريم فيما أنزل عليه من القرآن العظيم: ﴿ قُلْ هَذِهِ سَبِيلِي أَدْعُو إِلَى اللَّهِ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ أَنَا وَمَنِ اتَّبَعَنِي ﴾ [يوسف: ١٠٨].

قال الإمام البغوي رحمه الله: ﴿ أَدْعُو إِلَى اللَّهِ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ ﴾ على يقين، والبصيرة هي المعرفة التي تميز بين الحق والباطل، ﴿ أَنَا وَمَنِ اتَّبَعَنِي ﴾ أي: ومن آمن بي وصدقني أيضاً

(١) «مدارج السالكين» (١/ ١٢٤) ط. دار الكتاب العربي.

يدعو إلى الله هذا قول الكلبي وابن زيد قالوا: حق على من اتبعه أن يدعو إلى ما دعا إليه ويذكر بالقرآن، وقيل: تم الكلام عند قوله ﴿أَدْعُوا إِلَى اللَّهِ﴾ ثم استأنف: ﴿عَلَىٰ بَصِيرَةٍ أَنَا وَمَنِ اتَّبَعَنِي﴾ يقول: إني على بصيرة من ربي وكل من اتبعني^(١)، نعم ليست الدعوة إلى الله تعالى دعوة بلا منهجية وبلا ضابط بل هي دعوة على علم وبصيرة ويقين فالدعاة الربانيون هم المستبصرون وبيدنيهم، المستيقنون بما يريدونه من الناس ويدعونهم إليه فهم يتعلمون دينهم ثم يبشرون هذا العلم في الناس، ودعوة بغير بصيرة لن تكون ولن تقوم ولن تثبت وتسير على الهدى المستقيم لأن البصيرة من الفرائض اللازمة التي يجب على العبد أن يحصلها ويسير عليها قال شيخ الإسلام محمد بن عبد الوهاب في باب الدعاء إلى شهادة أن لا إله إلا الله من كتاب التوحيد فيه مسائل الثالثة: أن البصيرة من الفرائض.

ثانياً - البصيرة صفة الأنبياء ومن اقتدى بهم:

امتدح الله عزَّجَلَّ هذه الصفة في أنبيائه وأثنى عليهم بها وفي ذلك بيان لأهمية هذه السمة وضرورة الاقتداء بهم فيها، ولزوم الأخذ بها لكل سائر في الطريق إلى الله عزَّجَلَّ، قال الله تعالى: ﴿وَأَذْكُرْ عَبْدًا آتَاهُمُ الْإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ أُولَى الْأَيْدَى وَالْأَبْصَارِ﴾ [ص: ٤٥]، قال الطبري رَحِمَهُ اللهُ: ويعني بالأيدي القوة يقول: أهل القوة على عبادة الله وطاعته، ويعني بالأبصار أنهم أهل أبصار القلوب يعني به أولي العقول^(٢)، وقال أبو الفداء ابن كثير رَحِمَهُ اللهُ ﴿أُولَى الْأَيْدَى وَالْأَبْصَارِ﴾ يعني بذلك العمل الصالح والعلم النافع والقوة في العبادة والبصيرة النافذة^(٣)، وثناء الله على هؤلاء الأنبياء بذلك فيه دعوة لنا وحث لنا على الاقتداء بهم فيه وذلك بأن نكون من أهل البصائر في الدين، وإذا أثنى الله جَلَّ جَلَّالُهُ على أحدٍ من عباده بشيء فهذا يدل على حب الله له ودعوة الناس أن يتصفوا بذلك الوصف والتحلي بتلك

(١) «معالم التنزيل» للبعوي (٤/ ٢٨٤) ط. دار طيبة.

(٢) تفسير الطبري «جامع البيان» (٢١/ ٢١٥) ط. الرسالة.

(٣) «تفسير القرآن العظيم» لابن كثير (٤/ ٥٠)، ط. دار الفكر.

الصفة قال ابن عثيمين عليه رَحْمَةُ اللَّهِ: ويجب أن نعلم أن ثناء الله على أحدٍ من خلقه لا يقصد منه أن يصل إلينا الثناء فقط لكن يقصد منه أمران هاما:

الأول- محبة هذا الذي أثنى الله عليه خيرا.

الثاني- أن نفتدي به في هذه الصفات التي أثنى الله بها عليه لأنها محل الثناء ولنا من الثناء بقدر ما اقتدينا به فيها^(١)، والله تَبَارَكَ وَتَعَالَى يقول بعد أن ذكر ثمانية عشر نبيا في سورة الأنعام: ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ فِيمُدَّتْهُمْ أَدْتَدَهُ﴾ [الأنعام: ٩٠]. وقال تعالى: ﴿لَقَدْ كَانَتْ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِأُولِي الْأَلْبَابِ﴾ [يوسف: ١١١]. وقال تعالى: ﴿لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِيهِمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِمَن كَانَ يَرْجُوا اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ﴾ [الممتحنة: ٦].

ثالثا- إما البصيرة وإما العمى:

من لم تكن له بصيرة فهو أعمى يتخبط في الظلمات ويتيه ويضل عن سواء السبيل فالخلق نوعان: ذو بصيرة تمنعه بصيرته من الزلل والانحراف وآخر أعمى القلب لا يميز الحق من الباطل قال الله تعالى: ﴿أَفَمَن يَعْلَمُ أَنَّمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ الْحَقُّ كَمَن هُوَ أَعْمَىٰ إِنَّمَا يَنْدَرُكُرُ أُولَئِكَ الْأَلْبَابِ﴾ [الرعد: ١٩]، قال السعدي: ﴿أَفَمَن يَعْلَمُ أَنَّمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ الْحَقُّ﴾ ففهم ذلك وعمل به ﴿كَمَن هُوَ أَعْمَى﴾ لا يعلم الحق ولا يعمل به فبينهما من الفرق كما بين السماء والأرض^(٢)، وأولئك الذين حرموا البصيرة يتحقق فيهم قول من قال:

خفافيش أعمها النهار بضوئه ووافقها قطع من الليل مظلم

وقول من قال:

مثل النهار يزيد أبصار الورى نوراً ويعمي أعين الخفافيش

(١) «القول المفيد على كتاب التوحيد باختصار» ص [٦٣] ط. دار ابن الجوزي.

(٢) «تفسير السعدي».

فهم لا يرون الحق وإن اشتد نوره، ولا يهتدون إليه وإن أحاطت بهم حججه؛ لأنهم في ضلالهم يعمهون وفي غيهم يتيهون وهم عن الحق معرضون غافلون، قال الله تعالى: ﴿وَمَا يَسْتَوِي الْأَعْمَىٰ وَالْبَصِيرُ﴾ [فَاطِمَةُ: ١٩].

رابعاً - العمى الحقيقي عمى القلب:

قال الله تعالى: ﴿فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى الْأَبْصَرُ وَلَكِن تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ﴾ [الْحَجَّ: ٤٦]، قال شيخ المفسرين الطبري رَحِمَهُ اللهُ: ﴿فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى الْأَبْصَرُ﴾ يقول: فإنها لا تعمي أبصارهم أن يبصروا بها الأشخاص ويروها بل يبصرون ذلك بأبصارهم ولكن تعمي قلوبهم التي في صدورهم عن إبطار الحق ومعرفته^(١).

وقال ابن زيد في قول الله تعالى: ﴿إِنَّ شَرَّ الدَّوَابِّ عِنْدَ اللَّهِ الصُّمُّ الْبُكْمُ الَّذِينَ لَا يَعْقِلُونَ﴾ [الْأَنْفَاقُ: ٢٢]، ليس بالأصم في الدنيا ولا الأبكم ولكن صم القلوب وبكمها وعميها^(٢)، ليس الخلل في المشاعر والحواس ولكن الخلل والفساد في البصائر والعقول والفطر والضمائر التي عميت عن الهداية، وأثرت ظلمات الغواية وغرقت في أقدار الضلالة وكم من أعمى العين هو بصير القلب، عالم بالحق داعية إليه، مستمسك به، مجاهد لنصرته وإعزازه لكن الخطر الحقيقي والخذلان العظيم هو أن يكون مبصراً بعينه وقلبه أعمى، كم من عبر وعظات، وحكم وآيات مرت بتلك القلوب ولم تعتبر بها! وكم من كلمة للحق دوت في أسمعها ولكنها لم تعقل شيئاً! كم من نصائح ربانية نصحت بها ولكنها لم تهتد ولم تستجب للحق إذ جاءها، عميت عن الحق وهو أمامها وصمت عن الهدى وأثرت الهوى ولذا فإن هذا العمى يصبح يوم القيامة عمىً ظاهراً في الأبصار والبصائر ويكون جزاؤهم من جنس عملهم قال الله تعالى: ﴿وَنَحْشُرُهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ عُمِيًَّا وَنُكَمَا وَصُمًَّا وَأُولَئِكَ جَهَنَّمُ كُلَّمَا خَبَتْ زِدْنَاهُمْ سَعِيرًا﴾ [الْإِنشِرَافُ: ٩٧]. وقال جَلَّ جَلَالُهُ: ﴿وَمَنْ

(١) «تفسير الطبري» (١٨/٦٥٨).

(٢) المصدر السابق (١٣/٤٦٠).

أَعْرَضَ عَن ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنْكًا وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَعْمَى ﴿١٣٥﴾ قَالَ رَبِّ لِمَ حَشَرْتَنِي أَعْمَى وَقَدْ كُنْتُ بَصِيرًا ﴿١٣٥﴾ قَالَ كَذَلِكَ أَتَتْكَ آيَاتُنَا فَنَسِينَهَا وَكَذَلِكَ الْيَوْمَ نُنْسِيكَ ﴿طَبَا: ١٢٤-١٢٦﴾.

ليس الأصمُّ ولا الأعمى سوى رجلٍ
لا الدهر يبقى ولا الدنيا ولا الضلك
ليرحلن عن الدنيا وإن كره
لم يهده الهاديان العين والأثر
الأعلى ولا النيّران الشمس والقمر
فراقها الشاويان البدو والحضر

خامساً- فاقد البصيرة مذمومٌ أبلغ الذم

قال الله تعالى: ﴿وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِّنَ الْجِنِّ وَالإِنسِ لَهُمْ قُلُوبٌ لَا يَفْقَهُونَ بِهَا وَهُمْ أَعْيُنٌ لَا يُبْصِرُونَ بِهَا وَهُمْ ءَاذَانٌ لَا يَسْمَعُونَ بِهَا أُولَئِكَ كَأَلْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ أُولَئِكَ هُمُ الْغَافِلُونَ ﴿١٧٩﴾﴾ [الْإِنْفِرَاتِ: ١٧٩]. قال الطبري رحمه الله: وأما قوله تعالى: ﴿لَهُمْ قُلُوبٌ لَا يَفْقَهُونَ بِهَا﴾ فإن معناه لهؤلاء الذين ذرأهم الله لجهنم من خلقه قلوب لا يتفكرون بها في آيات الله ولا يتدبرون بها أدلة وحدانيته ولا يعتبرون بها حججه لرسله فيعلموا توحيد الله ويعرفوا حقيقة نبوة أنبيائهم فوصفهم ربنا جَلَّ جَلَالُهُ بأنهم ﴿لَا يَفْقَهُونَ بِهَا﴾ لإعراضهم عن الحق وتركهم تدبير نبوة الرسل وبطلان الكفر، وكذلك قوله: ﴿وَهُمْ أَعْيُنٌ لَا يُبْصِرُونَ بِهَا﴾ معناه وهم أعين لا ينظرون إلى آيات الله وأدلتها فيتأملوها ويتفكروا فيها فيعلمون بها صحة ما تدعوهم إليه رسلهم وفساد ما هم عليه مقيمون من الشرك بالله ولا تكذيب رسله فوصفهم الله بتركهم إعمالها في الحق بأنهم لا يبصرون بها وكذلك قوله: ﴿وَهُمْ ءَاذَانٌ لَا يَسْمَعُونَ بِهَا﴾ آيات كتاب الله فيعتبروها ويتفكروا فيها ولكنهم يعرضون عنها^(١).

ويقول الحافظ ابن كثير عليه رحمة الله: قوله تعالى: ﴿لَهُمْ قُلُوبٌ لَا يَفْقَهُونَ بِهَا وَهُمْ أَعْيُنٌ لَا يُبْصِرُونَ بِهَا وَهُمْ ءَاذَانٌ لَا يَسْمَعُونَ بِهَا﴾ يعني ليس ينتفعون بشيء من هذه الجوارح التي جعلها الله سبباً للهداية كما قال تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا لَهُمْ سَمْعًا وَبَصَرًا وَأَفْئِدَةً فَمَا أَغْنَىٰ عَنْهُمْ سَمْعُهُمْ

(١) «تفسير القرآن العظيم» لابن كثير (٢/٣٢٧) ط. دار الفكر.

وَلَا أَبْصَرُهُمْ وَلَا أَفْعَدْتُهُمْ مِنْ شَيْءٍ إِذْ كَانُوا يَجْحَدُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ ﴿ [الْإِنْفَاقِ: ٢٦]. وقال تعالى:

﴿ صُمُّ بُكْمٌ عُمَىٰ فَهُمْ لَا يَعْقِلُونَ ﴾ [البقرة: ١٨]. هذا في حق المنافقين وقال في حق الكافرين:

﴿ صُمُّ بُكْمٌ عُمَىٰ فَهُمْ لَا يَعْقِلُونَ ﴾ [البقرة: ١٧١]. ولم يكونوا صمًّا ولا بكمًّا ولا عميًا إلا عن الهدى كما قال تعالى: ﴿ وَلَوْ عَلِمَ اللَّهُ فِيهِمْ خَيْرًا لَأَسْمَعَهُمْ وَلَوْ أَسْمَعَهُمْ لَتَوَلَّوْا وَهُمْ مُّعْرِضُونَ ﴾ [الأنفال: ٢٣]. وقال الله تعالى في هؤلاء المعرضين الغافلين وأمثالهم: ﴿ أَمْ تَحْسَبُ أَنَّ أَكْثَرَهُمْ يَسْمَعُونَ أَوْ يَعْقِلُونَ إِنْ هُمْ إِلَّا كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ سَبِيلًا ﴾ [الفرقان: ٤٤]. وقال تعالى في اليهود المغضوب عليهم الذين جحدوا الحق وعاندوه واستكبروا عنه وكذبوا به قال الله فيهم:

﴿ مَثَلُ الَّذِينَ حُمِّلُوا التَّوْبَةَ ثُمَّ لَمْ يُحْمِلُوهَا كَمَثَلِ الْحِمَارِ يَحْمِلُ أَسْفَارًا ﴾ [الحجج: ٥]. وهذا الذي آتاه الله آياته فانسلخ منها وكان من الغاوين وأخلد إلى الأرض واتبع هواه وآثره على الحق قال الله فيه: ﴿ فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ الْكَلْبِ إِنْ تَحَمَّلَ عَلَيْهِ يَلْهَثَ أَوْ تَرَكَهٗ يَلْهَثُ ﴾ [الأعراف: ١٧٦]. يقول الشنقيطي رحمه الله: ضرب الله تعالى المثل لهذا الخسيس الذي آتاه آياته فانسلخ منها بالكلب ولم تكن حقارة الكلب مانعة من ضربه تعالى المثل به^(١)، قال ابن عطية في المحرر الوجيز: قال السدي وغيره إن هذا الرجل عوقب في الدنيا بأنه يلهث كما يلهث الكلب فشبهه به صورة وهيئة وقال الجمهور إنما شبهه به في أنه كان ضالًّا قبل أن يؤتى الآيات ثم أوتيتها فكان ضالًّا أيضًا ولم تنفعه فهو كالكلب في أنه لا يفارق اللهث في حال حمل المشقة عليه وتركه دون حمل عليه^(٢)، نعوذ بالله من الغفلة والعمى، ونسأله سبحانه الثبات على الهدى، وأن يقينا شر نفوسنا وأن يجنبنا اتباع الهوى.

(١) «أضواء البيان» (٢/٣٠٣).

(٢) «المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز» (٢/٥٤٩) ط. دار الكتب العلمية.

مشاهد من البصيرة

نور البصيرة إنما يؤتاه المرء بقدر علمه، وبقدر قربه من ربه، وبقدر زكاة نفسه وطهرها، وأعظم الخلق بصيرة أرسخهم إيماناً بالله وعلماً بدين الله وشرعه، ولهذا كان سيد الخلق رسول الله محمد صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ هو إمام المتقين في هذه الصفة الكريمة وفي كل وصف كريم نبيل، والحديث عن بصيرة المصطفى صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ حديث طويل بطول السيرة النبوية المباركة، يتطلب منا سرداً وعرضاً لكثير من المواقف العظيمة للنبي الكريم صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في دعوته للناس، وفي غزواته وحروبه، وفي معاملاته وحياته صلوات الله وسلامه عليه، ومن ذلك ما رواه البخاري ومسلم من حديث أبي واقد الليثي رَضِيَ اللهُ عَنْهُ أن رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بينما هو جالسٌ في المسجد والناس معه إذ أقبل نفرٌ ثلاثة فأقبل اثنان إلى رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وذهب واحدٌ قال فوقفا على رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فأما أحدهما فرأى فرجة في الحلقة فجلس فيها وأما الآخر فجلس خلفهم وأما الثالث فأدبر ذاهباً فلما فرغ رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: «ألا أخبركم عن النضر الثلاثة؟ أما أحدهم فأوى إلى الله فأواه الله وأما الآخر فاستحيا فاستحيا الله منه، وأما الآخر فأعرض فأعرض الله عنه»^(١).

وفي الصحيحين كذلك من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قال: جاء رجل من بني فزارة إلى النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فقال: إن امرأتي ولدت غلاماً أسود فقال النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «هل لك من إبل؟» قال: نعم، قال: «فما ألوانها؟» قال: حمر قال: «هل فيها من أورك؟»^(٢) قال: إن فيها لورقاً، قال: «فأنى أتاه ذلك؟» قال: عسى أن يكون نزع عرق قال: «وهذا عسى أن

(١) رواه البخاري برقم [٤٧٤]، ومسلم برقم [٢١٧٦].

(٢) الأورك من كل شيء ما كان لونه لون الرماد ومن الناس الأسمر ومن الإبل ما في لونه بياض إلى سواد.

يكون نزع عرق»^(١)، أي: يحتفل أن يكون في أجدادها وأصولها جملاً كان هذا لونه فصار لونه هذا كذلك.

وفي حديث كعب بن مالك المشهور والذي رواه البخاري ومسلم وغيرهما قال كعب بن مالك رَضِيَ اللهُ عَنْهُ: وكان -أي النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- إذا قدم من سفر بدأ بالمسجد فركع فيه ركعتين ثم جلس للناس فلما فعل ذلك جاءه المخلفون يعتذرون إليه ويحلفون له وكانوا بضعاً وثنانين رجلاً فقبل منهم علانيتهم وبايعهم واستغفر لهم ووكّل سرائرهم إلى الله تعالى حتى جئت فلما سلّمتُ تبسّم تبسّم الم غضب ثم قال: «تعال» فجئت أمشي حتى جلست بين يديه فقال لي «ما خلفك؟» ألم تكن قد ابتعت ظهرك قال: قلت: يا رسول الله إني والله لو جلستُ عند غيرك من أهل الدنيا لرأيتُ أني سأخرج من سخطه بعذر لقد أعطيتُ جدلاً، ولكني والله لقد علمتُ لئن حدثتُك اليوم حديث كذبٍ ترضى به عني ليوشكن الله أن يسخطك عليّ وإن حدثتُك حديث صدق تجد عليّ فيه إني لأرجو فيه عقبي الله عزّ وجلّ والله ما كان لي من عذر، والله ما كنت قط أقوى ولا أيسر مني حين تخلفت عنك قال فقال رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «أما هذا فقد صدق»^(٢)، فقوله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «أما هذا فقد صدق» دليل على أنه يعلم أن أولئك الذين اعتذروا من قبله كانوا كاذبين عدا صاحبيه مرارة بن الربيع وهلال بن أمية رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا.

ومن ذلك ما ورد في الصحيحين عن سهل بن سعد الساعدي رَضِيَ اللهُ عَنْهُ أن رسول الله التقى هو والمشركون فلما مال صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إلى عسكره ومال الآخرون إلى عسكرهم وفي أصحاب رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ رجل لا يدع لهم شاذة ولا فاذة إلا اتبعها يضر بها بسيفه فقالوا: ما أجزأ اليوم أحدٌ كما أجزأ فلان فقال رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «أما إنه من أهل النار» فقال رجل من القوم: أنا صاحبه قال: فخرج معه كلما وقف وقف

(١) رواه البخاري برقم [٥٣٠٥]، ومسلم برقم [١٥٠٠].

(٢) رواه البخاري برقم [٤٤١٨]، ومسلم برقم [٢٧٦٩].

معه وإذا أسرع أسرع معه قال: فجرح الرجل جرحاً شديداً فاستعجل الموت فوضع نصل سيفه بالأرض وذبابه بين ثديه ثم تحامل على سيفه فقتل نفسه فخرج الرجل إلى رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فقال: أشهد أنك رسول الله قال: «وما ذاك؟» قال: الرجل الذي ذكرت أنفاً أنه من أهل النار فأعظم الناس ذلك فقلت أنا لكم به فخرجت في طلبه ثم جرح جرحاً شديداً فاستعجل الموت فوضع نصل سيفه في الأرض وذبابه بين ثديه ثم تحامل عليه فقتل نفسه فقال رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عند ذلك: «إن الرجل ليعمل عمل أهل الجنة فيما يبدو للناس وهو من أهل النار، وإن الرجل ليعمل عمل أهل النار فيما يبدو للناس وهو من أهل الجنة»^(١).

وفي صلح الحديبية حينما طرح المشركون بنوداً جائرة ظالمة على لسان سهيل بن عمرو واشتد ذلك على الصحابة حتى جاء عمر إلى رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فقال له: أأنت نبي الله حقاً؟ قال: «بلى» قال: أألسنا على الحق وعدونا على الباطل؟ قال: «بلى» قال: فلم نعط الدنيا في ديننا إذا؟ قال: «إني رسول الله ولست أعصيه وهو ناصري» قال: أوليس كنت تحدثنا أنا سنأتي البيت فنطوف به قال: «بلى فأخبرتكم أنا نأتيه العام؟» قال قلت: لا قال: «فإنك آتبه ومطوف به»^(٢).

بصيرة الصحابة

أعلى درجات البصيرة في هذه الأمة بعد نبيها هي بصيرة الصحابة الكرام قال ابن القيم رَحِمَهُ اللهُ: أعلى درجات العلم البصيرة التي تكون نسبة العلوم فيها إلى القلب كنسبة المرئي إلى البصر وهذه هي الخصيصة التي اختص بها الصحابة عن سائر الأمة وهي أعلى درجات العلماء^(٣)، وهذا هو الصديق أبو بكر رَضِيَ اللهُ عَنْهُ يصدق النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ويوقن

(١) رواه البخاري برقم [٢٨٩٨]، ومسلم برقم [١١٢].

(٢) رواه البخاري برقم [٢٧٣٢].

(٣) «مدارج السالكين» (٢/٤٨١) ط. دار الكتاب العربي بيروت.

ببصيرته النافذة أن الرسول صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إن كان قال فقد صدق حتى سُمِّي الصديق صديقاً حينما صدق رسول الله ليلة الإسراء والمعراج.

وفي يوم الحديبية حينما اشتد الأمر بالصحابة وذهب عمر إلى رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ودار بينهما ذلكم الحوار الذي ذكرناه آنفاً أتى عمر بعد النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إلى أبي بكر رَضِيَ اللهُ عَنْهُ^(١)، فقال: يا أبا بكر أليس هذا نبي الله حقاً؟ قال: بلى، قال: ألسنا على الحق وعدونا على الباطل؟ قال: بلى، قال: فلم نعط الدنيا في ديننا إذأ؟ قال: أيها الرجل، إنه رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ليس يعصي ربه وهو ناصره فاستمسك بغرزه فوالله إنه لعلى الحق قال: أليس كان يحدثنا أنا سنأتي البيت ونطوف به؟ قال: بلى فأخبرك أنك آتية العام؟ قال: لا قال فإنك آتية ومطوف به^(٢)، يالها من بصيرة نافذة آتاها الله هذا الصديق حتى أدرك بها صدق الوعد الذي وعده الله ورسوله وتحقق النصر لهذا الحق مهما أحاط به من كيد ومكر، ومن روعة هذه البصيرة الصديقية أن تكلم بنفس الكلمات النبوية التي تكلم بها رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وذلك من كمال علم الصديق وطول صحبته للنبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وقربه منه وشدة تأثره به، ورسوخ علمه بهذا الدين وبقينه بأن العاقبة للمتقين، إنه قد رأى وأبصر من وراء هذه الحجب الكثيفة أنه لن يكون إلا الحق ولن يقع في كون الله إلا ما أخبر الله به رسوله وأراده جَلَّ جَلَالُهُ، إن بصيرة الصديق رأت وأيقنت أن وعد الله حق وأنه مهما توالى الخطوب وطالت الحروب، وانتفش الباطل معجباً بظاهره، محتالاً بقوته فلن يبقى إلا الحق فهو الأقوى والأبقى ﴿فَأَمَّا الزُّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَاءً وَأَمَّا مَا يَنْفَعُ النَّاسَ فَيَمْكُثُ فِي الْأَرْضِ﴾ [الرعد: ١٧].

(١) قلت: وهذه إشارة عظيمة إلى فضل الصديق وبصيرة نافذة من عمر بأن أفضل الأمة بعد نبيها هو الصديق لذلك آتاه ولم يأت غيره لتقرر هذا المعنى في نفسه ووثوقه به.

(٢) رواه البخاري برقم [٢٧٣١]، وقد سبق تخريجه قريباً.

وما أحوجنا لمثل هذا الدرس في هذه الأيام التي استأسدت فيها الفتن وعمت وطمت، وأعمت وأضلت فجدُّ بنا أن نوقن أن هذا الكيد الخبيث وذلك المكر المقتن مآله إلى زوال وأن المكر السيئ لا يحيق إلا بأهله، ولن تكون العاقبة قط إلا للمتقين ومهما حورب الإسلام وكيد له ومكر به فلن تستطيع قوة قط أن تحو نوره أو أن تزيل وجوده لأنه نور الله ومن ذا الذي يطفى نور الملك جَلَّ جَلَّالُهُ، إنه لو اجتمعت كل الأفواه وكل العقول وكل الطاقات والإمكانات لكي تطفى نور الله فلن تجد لذلك قط سبيلاً قال الله جَلَّ جَلَّالُهُ: ﴿يُرِيدُونَ لِيُطْفِئُوا نُورَ اللَّهِ بِأَفْوَاهِهِمْ وَاللَّهُ مُنِيرُ نُورِهِ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ ﴿٨﴾ هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَىٰ وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ ﴿٩﴾﴾ [الصَّفِّ: ٨-٩]، اطمئن وأيقن أن الله ناصر دينه ولكن أين دورك أنت؟! أين عملك أنت؟! أين سعيك في نصرته الإسلام وإعزازه؟! لن تُسأل يوم القيامة لماذا لم ينتصر الإسلام وإنما ستسأل لماذا لم تنصر الدين؟! لماذا تخاذلت عن نصرته؟! لماذا كنت عقبته في سبيل انتشاره؟! لماذا كنت صاداً عن سبيل الله بقولك وعملك، تلك هي القضية ومن قبلها كانت تلك الحقيقة فأين البصيرة التي توقن بها وتعمل لها؟!!

نعود إلى الصديق وصدق بصيرته روى البخاري عن عائشة رَضِيَ اللهُ عَنْهَا قالت: إن رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مات وأبو بكر بالسُّنْح - قال إسماعيل: تعني بالعالية - فقام عمر يقول: والله ما مات رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قالت: وقال عمر: والله ما كان يقع في نفسي إلا ذاك وليبعثنه الله فيقطعن أيدي رجال وأرجلهم فجاء أبو بكر فكشف عن رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فقبله فقال: بأبي أنت طبت حياً وميتاً، والذي نفسي بيده لا يديقك الله الموتين أبداً ثم خرج فقال: أيها الخائف على رسلك - يقصد عمر - فلما تكلم أبو بكر جلس عمر فحمد الله أبو بكر وأثنى عليه وقال: ألا من كان يعبد محمداً فإن محمداً قد مات ومن كان يعبد الله فإن الله حي لا يموت وقال: ﴿إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِيَّاهُمْ مَمْتُونٌ ﴿٣٠﴾﴾، وقال: ﴿وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ أَفَإَيْنَ مَاتَ أَوْ قُتِلَ انْقَلَبْتُمْ عَلَىٰ أَعْقَابِكُمْ

وَمَنْ يَنْقَلِبْ عَلَى عَقْبَيْهِ فَلَنْ يَضُرَّ اللَّهَ شَيْئًا وَسَيَجْزِي اللَّهُ الشَّاكِرِينَ ﴿١٤٤﴾ [التوبة: ١٤٤]. فنسج الناس ليكون^(١).

قال ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا: والله لكأن الناس لم يعلموا أن الله أنزل هذه الآية حتى تلاها أبو بكر فتلقاها منه الناس كلهم فما أسمع بشرًا من الناس إلا يتلوها وأن عمر قال: والله ما هو إلا أن سمعتُ أبا بكر تلاها فعقرت حتى ما تقلني رجلاي، وحتى أهويت إلى الأرض حين سمعته تلاها علمتُ أن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قد مات^(٢).

هكذا كانت بصيرة الصديق نافذة واعية تشبه عين الصقور بل هي أقوى، فيرد الأمة كلها إلى الصواب، ويعيد الحق إلى نصابه ويطلع النفوس على حقائق معلومة مستقرة لكن عيون البصائر ذهلت عنها لهول الفاجعة وشدتها وبقيت بصيرة الصديق قوية راسخة وضاءة منيرة تردُّ العقول إلى وعيها والنفوس إلى رشدها فلله دره وَرَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ وأرضاه.

ومن مشاهد البصيرة العظيمة في حياة الصديق رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ حُسن اختياره للخليفة من بعده فقد وقع اختياره على خير من يقوم بهذه المهمة من بعده ذلكم هو الفاروق عمر ابن الخطاب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ الذي كانت خلافته فتحًا من الفتوح، وخيرًا وبركة على الإسلام والمسلمين فقد كتب أبو بكر كتابًا في مرض موته أملاه على عثمان بن عفان رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ حيث قال له: اكتب: بسم الله الرحمن الرحيم، هذا ما عهد أبو بكر بن أبي قحافة في آخر عهده بالدنيا خارجًا منها وأول عهده بالآخرة داخلًا فيها حين يؤمن الكافر ويوقن الفاجر ويصدق الكاذب، إني استخلفتُ عليكم - ثم أغشي عليه - فكتب عثمان: إني استخلفتُ عليكم عمر بن الخطاب، فلما أفاق أبو بكر قال: اقرأ علي فقرأ عليه فكبر وقال: أراك خفت أن يختلف الناس إن افتلتت نفسي في غشيتي؟ قال: نعم قال: جزاك الله خيرًا عن

(١) رواه البخاري برقم [٣٦٦٨].

(٢) رواه البخاري برقم [٤٤٥٤].

الإسلام وأهله، وأقرأها أبو بكر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ وأمره فخرج على الناس بالكتاب فبايعوه لمن فيه فلما علموا أنه عمر دخل عليه قوم فقالوا: ما تقول لربك إذا سألك عن استخلافك عمر وأنت ترى غلظته؟ فقال: أجلسوني، أبا الله تحوفوني، خاب من تزود من أمركم بظلم أقول: استخلفت عليهم خير أهلك ثم دعا عمر وأوصاه^(١).

ومنها قضية أسارى بدر حيث أنزل الله عَزَّجَلَّ قرآناً يوافق ما قاله ابن الخطاب فقال الله عَزَّجَلَّ: ﴿ مَا كَانَتْ لِنَبِيِّ أَنْ يَكُونَ لَهُ أُسْرَى حَتَّى يُشْخَبَ فِي الْأَرْضِ ﴾ [الأنفال: ٦٧].

ومن ذلك الصلاة على عبد الله بن أبي ابن سلول حيث كان عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ يشير على الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ويلحُّ عليه في عدم الصلاة عليه وبعد أن صلى عليه رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ نزل عليه قول الله تعالى: ﴿ وَلَا تُصَلِّ عَلَى أَحَدٍ مِنْهُمْ مَاتَ أَبَدًا وَلَا تَقُمْ عَلَى قَبْرِهِ ﴾ [التوبة: ٨٤]، وكل هذه الموافقات وغيرها في الصحيحين أو أحدهما.

وروى مالك في الموطأ من حديث يحيى بن سعيد: أن عمر بن الخطاب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال لرجل: ما اسمك؟ قال: جمره فقال: ابن من؟ قال: ابن شهاب قال: ممن؟ قال: من الحرقة، قال: أين مسكنك؟ قال: بحررة النار، قال: بأيها؟ قال: بذات لظى، قال عمر: أدرك أهلك فقد احترقوا، قال: فكان كما قال عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ^(٢).

قال ابن القيم رَحِمَهُ اللَّهُ: كان الصديق رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أعظم الأمة فراسة وبعده عمر بن الخطاب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ ووقائع فراسته مشهورة فإنه ما قال لشيءٍ أظنه كذا إلا كان كما قال ويكفي في فراسته موافقته ربه في المواضع المعروفة، ومرَّ بعمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ سواد بن قارب ولم يكن يعرفه فقال: لقد أخطأ ظني؛ وإن هذا كاهن أو كان يعرف الكهانة في الجاهلية فلما جلس بين يديه قال له ذلك عمر فقال: سبحان الله يا أمير المؤمنين ما استقبلت أحداً

(١) أخرجه ابن الأثير في «أسد الغابة» (١٥٧/٤) وصححه ابن حجر في «المطالب العلية» [٤٣١٣].

(٢) رواه مالك في «الموطأ» (٩٧٣/٢) برقم [١٧٥٣] ط. دار إحياء التراث العربي.

من جلسائك بمثل ما استقبلتني به فقال له عمر: ما كنا عليه في الجاهلية أعظم من ذلك ولكن أخبرني عما سألتك عنه فقال: صدقت يا أمير المؤمنين كنت كاهناً في الجاهلية^(١).

وانظر إلى هذه البصيرة النافذة والنصيحة الصادقة من عبد الرحمن بن عوف رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ كما في الصحيح من حديث ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا أن عبد الرحمن رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: لو رأيت رجلاً أتى أمير المؤمنين اليوم فقال: يا أمير المؤمنين هل لك في فلان يقول لو قد مات عمر لقد بايعتُ فلاناً فوالله ما كانت بيعه أبي بكر إلا فلتة فتمت، فغضب عمر ثم قال: إني إن شاء الله لقائم العشية في الناس فمحذرهم من هؤلاء الذين يريدون أن يغضبوهم أمورهم قال عبد الرحمن: فقلت يا أمير المؤمنين، لا تفعل فإن الموسم يجمع رعاع الناس وغوغاءهم فإنهم هم الذين يغلبون على قربك حين تقوم في الناس وأنا أخشى أن تقوم فتقول مقالة يطيرها عنك كل مطير وأن لا يعوها وأن لا يضعوها على مواضعها فأمهل حتى تقدم المدينة فإنها دار الهجرة والسنة فتخلص بأهل الفقه وأشراف الناس فتقول ما قلت متمكناً فيعي أهل العلم مقاتلتك ويضعوها على مواضعها فقال عمر: أما والله إن شاء الله لأقومن بذلك أول مقام أقومه بالمدينة.....»^(٢).

وهذه نصيحة صادقة خالصة واعية يمحضها عبد الرحمن بن عوف رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ وينقذ الأمة من فتنة رآها بعين بصيرته وأقره عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

وتأمل هذه البصيرة الواعية من الفقيه التقي القارئ المتقن والعالم الراسخ في العلم عبد الله بن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ ففي سنن الدارمي وغيره بسند صحيح عن عمرو بن يحيى قال سمعت أبي يحدث عن أبيه قال: كنا نجلس على باب عبد الله بن مسعود قبل صلاة الغداة فإذا خرج مشينا معه إلى المسجد فجاءنا أبو موسى الأشعري فقال: أخرج إليكم أبو عبد الرحمن بعد؟ قلنا: لا، فجلس معنا حتى خرج فلما خرج قمنا إليه جميعاً فقال له

(١) «مدارج السالكين» (٤٨٦/٢) ط. دار الكتاب العربي.

(٢) رواه البخاري برقم [٦٨٣٠].

أبو موسى: يا أبا عبد الرحمن إني رأيت في المسجد أنفاً أمراً أنكرته، ولم أر والحمد لله إلا خيراً قال: فما هو؟ فقال: إن عشت فستراه، قال: رأيت في المسجد قومًا حلقًا جلوسًا ينتظرون الصلاة في كل حلقة رجل وفي أيديهم حصا فيقول: كبروا مائة فيكبرون مائة فيقول: هللو مائة فيهللون مائة ويقول: سبحوا مائة فيسبحون مائة، قال: فماذا قلت لهم؟ قال: ما قلت لهم شيئاً انتظار رأيك، وانتظار أمرك، قال: أفلا أمرتهم أن يعدوا سيئاتهم وضمنت لهم ألا يضيع من حسناتهم ثم مضى ومضينا معه حتى أتى حلقة من تلك الحلق فوقف عليهم، فقال: ما هذا الذي أراكم تصنعون؟! قالوا: يا أبا عبد الرحمن، حصا نعد بها التكبير والتهليل والتسبيح قال: فعدوا سيئاتكم فأنا ضامن ألا يضيع من حسناتكم شيء ويحكم يا أمة محمد ما أسرع هلكتكم، هؤلاء صحابة نبيكم صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ متوافرون، وهذه ثيابه لم تبل، وآنيته لم تكسر، والذي نفسي بيده إنكم لعلي ملة هي أهدى من ملة محمد أو مفتتحو باب ضلالة قالوا: والله يا أبا عبد الرحمن، ما أردنا إلا الخير، قال: وكم من مرید للخير لن يصيبه إن رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ حدثنا أن قومًا يقرءون القرآن لا يجاوز تراقيهم، وإيم الله ما أدري لعل أكثرهم منكم ثم تولى عنهم فقال عمرو بن سلمة: رأينا عامة أولئك الحلق يطاعنوننا يوم النهروان مع الخوارج^(١).

نعم إنه الفهم الثاقب والبصيرة القوية التي يؤتيها الله عباده المؤمنين ثمرة لإيمانهم وعلمهم ويقينهم، إن البصيرة لا تحصل إلا بالعلم والعبادة، وكلما كان العبد من الله أقرب وعلى الفرائض والسنن أحرص كلما قويت بصيرته لأنه يكون حينئذٍ مسددًا موفقًا؛ فإن الله إذا أحب عبدًا عصمه من سوء والزلل كما في الحديث القدسي الذي يتكرر معنا مرارًا «إذا أحببته كنت سمعه الذي يسمع به وبصره الذي يبصر به» وإنما تأتي هذه المحبة من صدق التعب والتفقه والتعلم كما في هذا الحديث أيضًا: «وما تقرب إليَّ عبدي بشيء أحب إليَّ مما افترضته

(١) «سنن الدارمي» (٧٩/١) برقم [٢٠٤]، ط. دار الكتاب العربي، وصححه الألباني في «الصحيححة» برقم

عليه، ولا يزال عبدي يتقرب إليَّ بالنوافل حتى أحبه» والحديث رواه البخاري في صحيحه. الشاهد أن الصحابة الكرام لما كان علمهم وبصيرتهم أقوى وفهمهم أدق وأعلى، كانوا أكثر الناس استجابة لدين الله وشرعه وأكثر الخلق تضحية في سبيل الله؛ لذلك نالوا ما نالوا.

صفحات منيرة بمشاهد من البصيرة

قبل طرح المواقف المتعددة من حياة الصالحين اسمحوالي إخواني الكرام أن أشير إلى بصيرة نبي كريم من أنبياء الله، إنه الكريم بن الكريم بن الكريم يعقوب بن إسحاق بن إبراهيم حيث قال الله جَلَّ جَلَالُهُ عَنْهُ فِي ذَلِكَ: ﴿وَجَاءَ وَعَلَى قَمِيصِهِ يَدَمٌ كَذِبٌ قَالَ بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنْفُسُكُمْ أَمْرًا فَصَبْرٌ جَمِيلٌ وَاللَّهُ الْمُسْتَعَانُ عَلَى مَا تَصِفُونَ﴾ [يُوسُفُ: ١٨].

إنه نبي كريم زكي النفس، ذكي العقل بصير القلب، لم تنطل عليه هذه الفرية وتلك الكذبة لأنه رأى من القرائن والأحوال ومن رؤيا يوسف التي قصها عليه ما دلَّه على ما قال ومن طريف من دله على كذبهم أنهم ذبحوا شاة ولطخوا بها قميص يوسف عَلَيْهِ السَّلَامُ لكنهم نسوا أن يخرقوا القميص أو يحدثوا به شقوفاً فلله در يعقوب النبي الكريم الصابر الموقن صلوات الله وسلامه عليه.

بصيرة رجل من خير الناس:

ومن مشاهد البصيرة في حياة الصالحين الصادقين ما قصه علينا رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ والحديث في الصحيحين من حديث أبي سعيد الخدري رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: حَدَّثَنَا رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَوْمًا حَدِيثًا طَوِيلًا عَنِ الدَّجَالِ فَكَانَ فِيهَا حَدِيثًا قَالَ: «يَأْتِي وَهُوَ مُحَرَّمٌ عَلَيْهِ أَنْ يَدْخُلَ نَقَابَ الْمَدِينَةِ فَيَنْتَهِيَ إِلَى بَعْضِ السَّبَاحِ الَّتِي تَلِي الْمَدِينَةَ فَيُخْرِجُ إِلَيْهِ يَوْمئِذٍ رَجُلٌ هُوَ خَيْرُ النَّاسِ أَوْ مِنْ خَيْرِ النَّاسِ» فيقول له: أشهد أنك الدجال الذي حدثنا رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ حديثه فيقول الدجال: أرايتم إن قتلت هذا ثم أحييته أتشكون في الأمر؟ فيقولون: لا قال فيقتله ثم يحييه فيقول حين يحييه: والله ما كنت فيك قط أشد

بصيرة مني الآن قال: فيريد الدجال أن يقتله فيسلط عليه^(١)، إنها البصيرة النافذة التي ترى الحق واضحاً جلياً، ولا ينخدع صاحبها بتهافت الناس في الضلال، وسقوطهم في الحيرة والتردد فهذا البصير يوقن بالحق ويراه رأي العين ولا يبالي بشيء في سبيل نصرته وإعزازه ولو اقتضى الأمر نزع الروح وبذل النفس فمن الحق الثبات على الحق بحق، فله در ذلك الشاب الذي يصبر على عذاب حاضر لأنه يرى من ورائه نعيمًا مقيمًا ثم لا يزيده ذلكم القتل إلا بصيرة ونورًا فيخاطب الدجال بكل ثقة ويقين: والله ما كنت فيك قط أشد بصيرة مني الآن.

بصيرة إياس:

ومن أهل العلم الذين آتاهم الله بصيرة نافذة وفراسة صادقة وفهمًا ثابتًا إياس بن معاوية وكان يُضرب به المثل في الذكاء كما قيل:

إقدام عمرو في سماحة حاتم في حلم أحنف في ذكاء إياس

ومن مواقفه في ذلك ما يلي: في مجلس القضاء دخل عليه ثلاث نسوة فقال: أما واحدة فمرضع والأخرى بكر، والأخرى ثيب فقيل له: كيف علمت؟ قال: أما المرضع فلما جلست أمسكت ثديها بيدها، وأما البكر فلما دخلت لم تلتفت إلى أحد، وأما الثيب فلما دخلت نظرت ورمت بعينيها^(٢).

قال إياس بن معاوية: كنت في مكتب بالشام وكنت صبيًا فاجتمع النصاري يضحكون من المسلمين وقالوا: إنهم يزعمون أنه لا يكون تفل للطعام في الجنة قال قلت: يا معلم ألسنت تزعم أن أكثر الطعام يذهب في البدن؟ فقال: بلى، قلت: فما ينكر أن يكون الباقي يذهبه الله في البدن كله، فقال: أنت شيطان.

(١) رواه البخاري برقم [٧١٣٢]، ومسلم برقم [٢٩٣٨].

(٢) «تهذيب الكمال» للمزي (٤٧/٣) ط. الرسالة، و«تاريخ دمشق» لابن عساکر (١٣/١٠) ط. دار الفكر.

وقال حماد بن زيد عن حبيب بن الشهيد عن إياس بن معاوية قال: ما خصمت أحداً من أهل الأهواء بعقلي كله إلا القدرية قال قلت: فإن الله تعالى له كل شيء (١).

وعن إبراهيم البصري قال: جاء رجلان إلى إياس بن معاوية يختصمان في قطيفتين إحداهما حمراء والأخرى خضراء فقال أحدهما: دخلت الحوض لأغتسل ووضعت قطيفتي وجاء هذا فوضع قطيفته تحت قطيفتي ثم دخل فاعتسل فخرج قبلي فأخذ قطيفتي فمضى بها ثم خرجت فتبعته فزعم أنها قطيفته فقال: ألك بينة؟ قال: لا، قال: اتنوني بمشط فأتي فسرح رأس هذا ورأس هذا فخرج من رأس أحدهما صوف أحمر ومن رأس الآخر صوف أخضر ففرضي بالحمراء للذي خرج من رأسه الصوف الأحمر وبالخضراء للذي خرج من رأسه الصوف الأخضر (٢).

قال أبو الحسن المدائني: تنازع إلى إياس رجلان ادعى أحدهما أنه أودع صاحبه مالا وجحده الآخر فقال إياس للمدعي: أين أودعته هذا المال؟ قال: في موضع كذا وكذا قال: وما كان في ذلك الموضع؟ قال شجرة قال: فانطلق فالتمس مالك عند الشجرة فلعلك إذا رأيتها تذكر أين وضعت مالك فانطلق الرجل وقال إياس للمطلوب: اجلس إلى أن يجيء صاحبك فجلس فلبث إياس ملياً يحكم بين الناس ثم قال للجالس عنده: أترى صاحبك بلغ الموضع الذي أودعك فيه؟ قال: لا فقال: يا عدو الله إنك لخائن فأقر عنده فحبسه حتى جاء صاحبه ثم أمره بدفع الوديعة إليه.

قال: وأودع رجل رجلاً كيساً فيه دنانير فغاب خمس عشرة سنة ثم رجع وقد فتق المودع الكيس من أسفله فأخذ ما فيه وجعل مكانه دراهم (٣). والخاتم على حاله فنازعه فقال إياس: مذكم أودعته؟ قال: من خمس عشرة سنة فسأل المودع فقال: صدق فأخرج

(١) «تاريخ دمشق» (١٥/١٠).

(٢) «تهذيب الكمال» (٣/٤٢٣-٤٢٤).

(٣) الدنانير من ذهب والدرهم من فضة.

الدرهم فوجد فيها ما ضرب منذ عشر سنين أو خمس سنين فقال للمودع: أقررت أنه أودعك منذ خمس عشرة سنة وهذا ضربٌ أحدث مما ذكرت فأقر له بوديعته وردها عليه.

وعن إبراهيم بن مرزوق البصري قال: كنا عند إياس بن معاوية قبل أن يستقضى قال: وكنا نكتب عنه الفراسة كما نكتب عن صاحب الحديث الحديث قال: إذا جاء رجل فجلس على دكان مرتفع بالمربد فجعل يترصد الطريق فبينما هو كذلك إذ نزل فاستقبل رجلاً فنظر في وجهه ثم رجع إلى موضعه قال فقال إياس: قولوا في هذا الرجل قالوا: ما نقول؟ رجل طالب حاجة قال فقال: هذا معلم صبيان قد أبق له غلامٌ أعور فإن أردتم أن تستفهموه ذلك فقوموا إليه فاسألوه قال فقام إليه بعضنا فقال له: إنا نراك منذ اليوم ألك حاجة تستعين بنا على حاجتك؟ قال فقال: لي غلامٌ نسَّاج كان يغل علينا وقد زاغ منذ أيام قال فقالوا: صف لنا غلامك وصف لنا موضعك فقال: أما أنا فأعلم الصبيان بالكلاء وأما غلامي فغلامٌ من صفته كذا وكذا إحدى عينيه ذاهبة قال: فرجعنا إليه فقلنا له كما قلت ولكن كيف علمت أنه معلم صبيان؟ قال: رأيته جاء يطلب موضعاً يجلس فيه، فعلمت أنه يطلب عادته في الجلوس فنظر إلى أرفع شيء يقدر عليه فجلس عليه فنظرت في قدره فإذا ليس قدره قدر الملوك فنظرت فيمن اعتاد في جلوسه جلوس الملوك فلم أجدهم إلا المعلمين، فعلمت أنه معلم صبيان، فقلنا: كيف علمت أنه أبق له غلامٌ أعور قال: إني رأيته يترصد الطريق فبينما هو كذلك إذ نزل فاستقبل رجلاً قد ذهب إحدى عينيه فعلمت أنه شبهه بغلامه^(١).

وأتى دهقان إلى إياس فقال: يا أبا وائلة، ما تقول في المسكر؟ قال: حرام قال: وما حرمه وإنما هو تمر وماء والحشو قال: فرغت يا دهقان؟ قال: نعم فقال: أرأيت لو أخذت كف ماء فضربتك به كان يوجعك؟ قال: لا، فقال: أرأيت لو أخذت كف تراب

(١) «تهذيب الكمال» (٣/٤٢٦).

فضربتك به كان يوجعك؟ قال: لا، فقال: لو أخذت كف تبين فضربتك به كان يوجعك قال: لا، قال: فأخذت تراباً فطرحته عليه التبن ثم صببت عليه الماء ثم غمرته غمراً ثم جعلته في الشمس ثم ضربتك به كان يوجعك؟ قال: نعم ويقتلني قال: فكذلك هذا حين جمعت أخلاطه وخمرت حرم^(١).

بصيرة البصري:

ومن أهل البصائر النافذة ذلك العالم البصير الحسن البصري أبو سعيد رَحِمَهُ اللهُ ومن ذلك أنه جاءه جماعة من المسلمين يستفتونه في الخروج على الحجاج فقالوا: يا أبا سعيد، ما تقول في قتال هذا الطاغية الذي سفك الدم الحرام وأخذ المال الحرام... وفعل وفعل؟ فقال الحسن: أرى أن لا تقاتلوه، فإنها إن تك عقوبة من الله فما أنتم برادي عقوبة الله بأسيا فكم وإن يكن بلاء فاصبروا حتى يحكم الله وهو خير الحاكمين، وخرجوا من عند الحسن ولم يوافقوه فخرجوا على الحجاج فقتلوا جميعاً، ولهذا كان الحسن يقول: لو أن الناس إذا ابتلوا من قبل سلطانهم صبروا ما لبثوا أن يفرج عنهم ولكنهم يجزعون إلى السيف فيوكلون إليه فوالله ما جاءوا بيوم خير قط^(٢)، وهذا الموقف يبين بصيرة العلماء وما آتاهم الله عَزَّجَلَّ من فهم وحكمة ينبغي أن تتبع وأن يسير الناس على منوالها؛ لأن الانحراف عن منهج العلماء يجر الناس إلى ويلات وفتن عظيمة بل وإزهاق للأرواح وفساد عريض فينبغي على الناس جميعاً أن يسترشدوا بكلام العلماء وأن يتبعوهم لأنهم أعلم الخلق بدين الله وهم أعرف الناس بما يضر وما ينفع.

بصيرة إمام دار الهجرة:

ومن أهل البصائر الحكيمة النافذة الإمام مالك بن أنس الأصبحي إمام الهجرة ومن مواقفه في ذلك ما أورده أبو نعيم في «الحلية» و«الذهبي في السير» أن رجلاً جاء

(١) «تاريخ دمشق» (١٠/٢٢).

(٢) «الطبقات الكبرى» لابن سعد (٧/١٦٣-١٦٥) ط. دار صادر.

إليه وقال: يا أبا عبد الله: ﴿الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى﴾ كيف استوى؟ فما وجد مالك من شيء ما وجد من مسألته فنظر إلى الأرض وجعل ينكت بعود في يده حتى علاه الرضاء ثم رفع رأسه ورمى بالعود وقال: كيف منه غير معقول، والاستواء منه غير مجهول، والإيمان به واجب، والسؤال عنه بدعة وأمر به فأخرج^(١).

وهذا المشهد يبين رسوخ علم مالك ووعيه وفهمه لخطورة الابتداع في الدين وهذا مما ينبغي على أهل العلم قاطبة أن يحرصوا عليه لا بد من وأد البدع، وسحق آثارها، ودمدمة مظاهرها، ولزماً على كل عالم أن يسارع إلى القضاء على كل بدعة في أول ظهورها حتى لا تقوم لها قائمة؛ فإنها متى قامت في الناس بدعة هدمت من حياتهم سنة، لاسيما إذا كانت البدعة كهذه التي تصدى لها مالك؛ فإن فيها هدمًا للعقيدة وحرَبًا لأصول التوحيد والرسالة النبوية المباركة، وبمثل هؤلاء العلماء يحرس الدين وتحفظ معالمه بإذن الله، وبجهادهم تثبت دعائمه وتبقى في قلوب الناس عظمتة وجلاله.

ومن بصيرته وفهمه ووعيه رَحِمَهُ اللهُ هذا المشهد قال الحافظ ابن عبد البر في التمهيد هذا ما كتبه من حفطي وغاب عني أصلي: إن عبد الله العمري العابد كتب إلى مالك يحضه على الانفراد والعمل فكتب إليه مالك: إن الله قسم الأعمال كما قسم الأرزاق، فرب رجل فتح له في الصوم، وآخر فتح له في الصدقة ولم يفتح له في الصوم، وآخر فتح له في الجهاد، فنشر العلم من أفضل أعمال البر، وقد رضيت بما فتح لي فيه، وما أظن ما أنا فيه بدون ما أنت فيه وأرجو أن يكون كلانا على خير وبر^(٢).

ومن جليل وجميل ما يذكر في بصيرة هذا الإمام الفذ رؤيته لمخايل النجابة والنبيل في الشافعي محمد بن إدريس عليه رحمة الله الذي صار إماماً لا يضاهاه، وعالمًا لا يبارى يقول الشافعي رَحِمَهُ اللهُ: لما سرتُ إلى المدينة ولقيت مالكاُ وسمع كلامي نظر إليَّ ساعة

(١) «الحلية» لأبي نعيم (٦/٣٢٥)، و«السير للذهبي» (٨/١٠٠) ط. الرسالة.

(٢) «سير أعلام النبلاء» للذهبي (١٥/١١٥) ط. الرسالة.

-وكانت له فراسة- ثم قال لي: ما اسمك؟ قلت: محمد قال: يا محمد، اتق الله واجتنب المعاصي فإنه سيكون لك شأن من الشأن^(١).

رحم الله مالكا والله در من قال فيه:

يأتي الجواب فما يراجع هيبة
أدب الوقار وعز سلطان التقى
والسائلون نواكس الأذقان
فهو المطاع وليس ذا سلطان

بصيرة ابن سيرين:

ومن آتاهم الله بصيرة الإمام محمد بن سيرين ذلكم الإمام الذي اشتهر بنظره الثاقب في تأويل الرؤى ومن ذلك ما يلي: عن عبد الله بن مسلم المروزي قال: كنت أجالس ابن سيرين فتركته وجالست الإباضية، فرأيت كأني مع قوم يحملون جنازة النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فأتيت ابن سيرين فذكرته له فقال: مالك جالست أقواما يريدون أن يدفنوا ما جاء به النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

وعن هشام بن حسان قال: قصَّ رجل على ابن سيرين فقال: رأيت كأن بيدي قدحا من زجاج فيه ماء فانكسر القدح وبقي الماء فقال له: اتق الله فإنك لم تر شيئا فقال: سبحان الله قال ابن سيرين: فمن كذب فما على، ستلد امرأتك وتموت ويبقى ولدها فلما خرج الرجل قال: والله ما رأيت شيئا فلما لبث أن ولد له وماتت امرأته.

قال: ودخل آخر فقال: رأيت كأني وجارية سوداء نأكل في قصعة سمكة قال: أتهيبني لي طعاما وتدعوني؟ قال: نعم ففعل، فلما وضعت المائدة إذا جارية سوداء فقال له ابن سيرين: هل أصبت هذه؟ قال: لا قال: فادخل بها المخدع فدخل وصاح: يا أبا بكر، رجلٌ والله، فقال: هذا الذي شاركك في أهلك^(٢).

(١) «الإمام مالك» للشيخ محمد أبي زهرة ص [٨٧] ط. دار الفكر العربي.

(٢) «السير للذهبي» (٥/٤٨٣-٤٨٤) ط. التوفيقية ومعنى أصبت هذه أي جامعتها وقال الذهبي عقب إيراد ذلك: قد جاء عن ابن سيرين في التعبير عجائب يطول الكتاب بذكرها وكان له في ذلك تأييد إلهي.

وعن أبي قلابة أن رجلاً قال لأبي بكر [ابن سيرين]: رأيت كأني أبول دمًا، فقال: أتأتي امرأتك وهي حائض؟ قال: نعم قال: اتق الله ولا تعد.

وعن أبي جعفر عن ابن سيرين أن رجلاً رأى في المنام كأن في حجره صبياً يصيح فقص رؤياه على ابن سيرين قال: اتق الله ولا تضرب العود.

وعن مبارك بن يزيد البصري قال: قال رجل لابن سيرين: رأيت كأني أطير بين السماء والأرض قال: أنت رجل تكثر المنى^(١).

ومن المواقف التي تبين بصيرة هذا الإمام النافذة ما ورد عن عمر بن عبد العزيز قال سمعت محمد بن سيرين وسمع عمن يسمع القرآن فيصعق قال: ميعاد ما بيننا وبينهم أن يجلسوا على حائط فيقرأ عليهم القرآن من أوله إلى آخره فإن سقطوا فهم كما يقولون^(٢).

وعن ابن عون قال: جاء رجلٌ إلى محمد أي ابن سيرين فذكر له شيئاً في القدر فقال محمد: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ وَإِيتَايَ ذِي الْقُرْبَىٰ وَيَنْهَىٰ عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ وَالْبَغْيِ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾ [النحل: ٩٠]، قال: ووضع إصبعي يديه في أذنيه وقال: إما أن تخرج عني وإما أن أخرج عنك قال: فخرج الرجل قال فقال محمد: إن قلبي ليس بيدي وإني خفت أن ينفت في قلبي شيئاً فلا أقدر على إخراجه منه، فكان أحب إليّ أن لا أسمع كلامه^(٣).

بصيرة الشافعي الإمام:

ومن أهل البصائر النافذة الإمام الشافعي محمد بن إدريس عليه رحمة الله فعن الربيع بن سليمان قال: دفع إليّ الشافعي دراهم لأشتري له حملاً وأمرني أن أشوي ذلك

(١) «حلية الأولياء» لأبي نعيم (٢/٢٢٧-٢٢٧-٢٧٨) ط. مكتبة السعادة.

(٢) المصدر السابق (٢/٢٦٥).

(٣) «الطبقات» لابن سعد (٧/١٩٧) ط. دار صادر.

قال: فنسيت واشترت سمكتين وشويتهما فأتيته بهما، فنظر فقال: يا أبا محمد كلها فقد اشتهيتها^(١).

وعن حرملة بن يحيى قال: سمعت الشافعي يقول في رجل قال لامرأته وفي فيها تمر إن أكلتها فأنت طالق وإن طرحتها فأنت طالق قال: تأكل نصفها وتطرح نصفها^(٢).
ومن مشاهد البصرة ما ذكره القرطبي في تفسيره حيث قال: روي عن الشافعي ومحمد بن الحسن أنها كانا بفناء الكعبة ورجل على باب المسجد فقال أحدهما: أراه نجارًا وقال الآخر: بل حدادًا فتبادر من حضر إلى الرجل فسأله فقال: كنت نجارًا وأنا اليوم حداد.

وروي عن الحسن البصري أنه دخل عليه عمرو بن عبيد فقال: هذا سيد فتیان البصرة إن لم يحدث فكان من أمره في القدر ما كان حتى هجره عامة إخوانه.
وروي عن الشعبي أنه قال لداود الأزدي وهو يباريه: إنك لا تموت حتى تكوى في رأسك وكان كذلك^(٣).

وقال يونس قلت للشافعي: صاحبنا الليث يقول: لو رأيت صاحب هوى يمشي على الماء ما قبلته قال: قَصَّرْ، لو رأيت يمشي في الهواء لما قبلته^(٤).

وقال أبو يحيى زكريا الساجي حدثنا المزني قال قلت: إن كان أحد يخرج ما في ضميري وما تعلق به خاطري من أمر التوحيد فالشافعي فصرت إليه وهو في مسجد مصر فلما جثوت بين يديه، قلت: هجس في ضميري مسألة في التوحيد، فعلمت أن أحدًا

(١) «مناقب الشافعي» للإمام البيهقي (٣٣٤ / ٢) ط. دار التراث.

(٢) المصدر السابق (٣٤٠ / ٢).

(٣) «تفسير القرطبي» (٣٥ / ١٠) ط. التوفيقية.

(٤) «السير للذهبي» (٣٨٧ / ٨) ط. التوفيقية.

لا يعلم علمك فما الذي عندك؟ فغضب ثم قال: أندري أين أنت؟ قلت: نعم قال: هذا الموضوع الذي أغرق الله فيه فرعون أبلغك أن رسول اله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أمر بالسؤال عن ذلك؟ قلت: لا، قال: هل تكلم فيه الصحابة؟ قلت: لا، قال: تدري كم نجماً في السماء؟ قلت: لا، قال: فكوكب منها تعرف جنسه، طلوعه، أفوله، مم خلق؟ قلت: لا، قال: فشيءٌ تراه بعينك من الخلق لست تعرفه تتكلم في علم خالقه؟! ثم سألتني عن مسألة في الضوء فأخطأت فيها ففرعها على أربعة أوجه فلم أصب في شيء منه فقال: شيء تحتاج إليه في اليوم خمس مرات تدع علمه وتتكلف علم الخالق، إذا هجس في ضميرك ذلك فارجع إلى الله وإلى قوله تعالى: ﴿وَاللَّهُكُزُّ إِلَهٌُ وَحْدٌ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ﴾ (١١٣) إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَآخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَالْفُلْكِ الَّتِي تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِمَا يَنْفَعُ النَّاسَ وَمَا أَنْزَلَ اللَّهُ مِنَ السَّمَاءِ مِنْ مَّاءٍ فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَبَثَّ فِيهَا مِنْ كُلِّ دَابَّةٍ وَتَصْرِيفِ الرِّيْحِ وَالسَّحَابِ الْمُسَخَّرِ بَيْنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿ [البقرة: ١٦٣-١٦٤]، فاستدل بالمخلوق على الخالق ولا تتكلف علم ما لم يبلغه عقلك قال: فتبت^(١).

قال الحميدي عبد الله بن الزبير سمعت مسلم بن خالد الزنجي ومر على الشافعي وهو يفتي وهو ابن خمس عشرة سنة فقال: يا أبا عبد الله أفْتِ فقد آن لك أن تفتي.

وقال صالح بن أحمد بن حنبل: مشى أبي مع بغلة الشافعي فبعث إليه يحيى بن معين فقال له: يا أبا عبد الله أما رضيت إلا أن تمشي مع بغلته فقال: يا أبا زكريا لو مشيت من الجانب الآخر كان أنفع لك^(٢).

(١) «السير للذهبي» (٨/٣٩١).

(٢) «تهذيب الكمال» للحافظ المزي (١٦/٤٧-٤٩) ط. دار الفكر.

بصيرة الإمام أحمد:

ومن أهل البصائر النافذة، والعقول الواعية، والقلوب الحية اليقظة، ذلكم الإمام المبجل أحمد بن حنبل الذي بذل نفسه لله وثبت على العقيدة الصحيحة حتى نصر الله به الحق وأعلى منار أهل السنة وذلك بعد أن ذاق العذاب الأليم وتجرع غصص البلاء ولكن هانت عليه نفسه في الله، وناظر أهل البدعة ودحض إفكهم وأبطل اعتقادهم الفاسد وذلك ببصيرته الواعية قال له أحد المعتزلة يناظره بحضرة الخليفة: ما تقول في القرآن؟ قال أحمد: فسكت فقال الخليفة: أجبه فقلت له: ما تقول في علم الله عزَّجَلَّ ومن زعم أن علم الله مخلوق فقد كفر بالله فسكت فقال الحاضر ون للمعتصم (الخليفة): يا أمير المؤمنين أكفرنا وأكفرك فلم يلتفت إلى ذلك منهم فقبل لأحمد: كان الله ولا قرآن فقال أحمد: أكان الله ولا علم؟ فأمسك ولو زعم أن الله كان ولا علم كفر^(١).

وقال إسحاق بن حنبل - عم الإمام أحمد -: كنت أتكلم مع أصحاب السلطان والقواد في خلاص أبي عبد الله، فلم يتم لي أمر فاستأذنت على إسحاق بن إبراهيم فدخلت إليه وكلمته فقال لحاجبه: اذهب معه إلى ابن أخيه ولا يكلم ابن أخيه بشيء إلا أخبرتني به قال إسحاق: فدخلت على أبي عبد الله ومعى حاجبه فقلت: يا أبا عبد الله قد أجاب أصحابك وقد أعذرت فيما بينك وبين الله، وبقيت أنت في الحبس والضيق فقال أبو عبد الله: يا عم إذا أجاب العالم تقيَّةً والجاهل بجهل متى يتبين الحق؟! قال: فأمسكت عنه^(٢).

وذكر ابن الجوزي بسنده إلى عبيد الله بن عبد الرحمن الزهري قال: قال المروزي: قال لي أبو عبد الله وهو بين الهنبازين: اخرج انظر أي شيء ترى؟ قال: فخرجت إلى رحبة دار الخليفة فرأيت خلقاً من الناس لا يحصى عددهم إلا الله، والصحف والأقلام

(١) «الجواهر المحصل» في مناقب أحمد بن حنبل ص [٨٩] ط. هجر.

(٢) المصدر السابق ص [٧٤] نقلاً عن ذكر المحنة لحنبل بن إسحاق ص [٤١].

في أيديهم، والمحابر في أذرعهم، فقال لهم المروزي: أي شيء تعملون؟ فقالوا: ننتظر ما يقول أحمد فنكتبه فدخل المروزي إلى أبي عبد الله وهو قائم بين الهنبازين فقال: رأيت قوماً بأيديهم الصحف والأقلام ينتظرون ما تقول فيكتبونه فقال: يا مروزي أضل هؤلاء كلهم؟ أقتل نفسي ولا أضل هؤلاء كلهم.

قال الحافظ أبو الفرج قلت: هذا رجل هانت عليه نفسه في الله عزَّ وجلَّ كما هانت على بلال نفسه، وقد روينا عن سعيد بن المسيب أنه كانت عليه نفسه في الله تعالى أهون من نفس ذباب، وإنما تهون عليهم أنفسهم لعلمهم بالعواقب فعيون البصائر ناظرة إلى المآل لا الحال، وشدة ابتلاء أحمد دليل على قوة دينه؛ لأنه قد صحح عن النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أنه قال: «يبتلَى الرجل على حسب دينه»^(١)، فسبحان من أيده وبصره، وقواه ونصره^(٢).

قال إسحاق بن راهويه: لولا أحمد بن حنبل وبذل نفسه لما بذلها له لذهب الإسلام^(٣).

قال الحافظ ابن حجر: قال ابن حبان في الثقات [أي عن الإمام أحمد]: كان حافظاً متقناً فقيهاً ملازماً للورع الخفي مواظباً على العبادة الدائمة أغاث الله به أمة محمد صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وذلك أنه ثبت في المحنة وبذل نفسه لله حتى ضرب الشياطين وعرض للقتل، فعصمه الله تعالى عن الكفر وجعله علماً يقتدى به وملجأً يلجأ إليه^(٤).

أيها الإخوة، العالم حقاً من كان الحق أحب إليه من نفسه وأثمن عنده من حياته، وسمة الصادقين من العلماء الصدع بالحق والاستمسك به وإيثار ما يرضي الله، والثبات على دينه، والأمة إنما نستمد ثباتها بثبات علمائها فهم ضمير الأمة وعقولها فإذا صلحوا

(١) رواه الترمذي برقم [٢٣٩٨] وأحمد (١/١٧٢)، وهو صحيح - سوف يأتي تحريجه قريباً.

(٢) «الجواهر المحصل» ص [٨٦-٨٧] نقلاً عن «مناقب أحمد» لابن الجوزي ص [٤٠٨-٤٠٩].

(٣) «تهذيب الكمال» (١/٢٣٨) ط. دار الفكر.

(٤) «تهذيب التهذيب» (١/٦٥).

صلحت الأمة بصلاحيهم، وارتفعت مكانتها ومنزلتها بين الأمم، تأمل كيف أن ابن تيمية ببصيرته النافذة قام بتحريض الأمراء والعامّة على التصدي للتتار، وارتاب الناس في حكم قتالهم حتى قال شيخ الإسلام: لو رأيتموني في صف التتر موالياً لهم وعلى رأسي مصحف فاقتلونني، فتشجع الناس في قتال التتر وقويت قلوبهم، وتأمل كيف كشف السنوسي زيف دعوى المهدي السوداني، وكيف كشف الألباني وابن باز ببصيرة نافذة زيف دعوى المهدي القحطاني^(١).

من مجالات البصيرة

إن صاحب القلب الحي يرى ببصيرته حقائق هذا الوجود من وراء الحجب الكثيفة، يراها واضحة بينة، ولا يعتره شك أو ارتياب ولا تعيمه شبهة أو فتنة؛ لأنه يبصر الحق في نقائه وبقائه، ويؤثره ويحيي عليه ويعلم أن الباطل مهما بدا قوياً متجبراً فهو زاهق زائل وأنه لا يبقى إلا الحق قال تعالى: ﴿إِنَّ الْبَاطِلَ كَانَ زَهُوقًا﴾ [الأنبياء: ٨١]، ولقد صارت البصيرة متحتمة علينا في هذا العصر أكثر من ذي قبل وذلك لما يشاهد فيه من متناقضات وشبهات، وكثرة الفتن وتنوعها وشدتها، ووجود طوائف مضلة ضالة تدعو إلى ضلالها، وتنشر بين الناس إفكها وخبثها، ألا فليعلم كل مسلم أن الحق واحد لا يتعدد وأن الحق لا يمكن أن يكون إلا في كتاب الله وفي سنة رسوله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ولا ينضبط فهم القرآن ولا السنة إلا بفهم الصحابة الذين نزل القرآن على رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وهم معه يربيههم به ويعلمهم إياه فأخذوه من النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ صافياً ثم ورث الفهم السديد الرشيد من الصحابة التابعون من بعدهم ثم تلقاه تابعو التابعين عن التابعين فتلك هي القرون الثلاثة التي شهد لها رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بالخيرية وهي التي ينبغي أن نفهم الوحي قرآناً وسنة في ضوء فهمهم هم فإن منهجهم وطريقتهم هي الأسلم والأقوم

(١) انظر «بصائر في الفتن» ص [٢٧] ط. العالمية.

والأعلم والأحكم والأرضى لله ورسوله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ومن المجالات التي لا بد أن تكون فيها البصيرة مايلي:

أولاً - البصيرة بحقيقة التوحيد:

حياة المرء بعقيدته وإيمانه وأوجب الواجبات على المؤمنين هو تصحيح العقيدة فهي الأصل والأساس، إن كلمة التوحيد منهج حياة، تحكم المسلم في كل موطن من مواطن حياته، فهو على يقين بأنه لا يملك النفع والضر إلا الله ولذا فهو لا يمكن أبدًا أن يلتفت إلى سواه أو يدعو غير ربه ومولاه قال الله جَلَّ جَلَالُهُ: ﴿وَإِنْ يَمَسُّكَ اللَّهُ بِضُرٍّ فَلَا كَاشِفَ لَهُ إِلَّا هُوَ وَإِنْ يَمَسُّكَ بِخَيْرٍ فَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿١٧﴾ وَهُوَ الْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِ وَهُوَ الْحَكِيمُ الْحَكِيمُ ﴿١٨﴾﴾ [الأنعام: ١٧-١٨]، وقال الله تعالى: ﴿قُلْ أَدْعُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَنْفَعُنَا وَلَا يَضُرُّنَا وَنُرَدُّ عَلَىٰ أَعْقَابِنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْنَا اللَّهُ كَالَّذِي اسْتَهْوَتْهُ الشَّيَاطِينُ فِي الْأَرْضِ حَيْرَانَ لَهُ أَصْحَابٌ يَدْعُونَهُ إِلَىٰ الْهُدَىٰ أُتَيْنَا قُلْ إِنَّ هُدَىٰ اللَّهِ هُوَ الْهُدَىٰ وَأُمِّرْنَا لِنُؤْمِنَ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿٧١﴾﴾ [الأنعام: ٧١]، وقال رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «إذا سألت فسأل الله وإذا استعنت فاستعن بالله، واعلم أن الأمة لو اجتمعت على أن ينفعوك بشيء لم ينفعوك إلا بشيء قد كتبه الله لك، وإن اجتمعوا على أن يضروك بشيء لم يضروك إلا بشيء قد كتبه الله عليك رفعت الأقلام وجفت الصحف»^(١)، هذا هو نور الحق الذي ينبغي أن يشرق في القلوب، وينبغي أن ننشره في الأمة، لاسيما ونحن لا نزال نرى أناسًا عميت بصائرهم، وضلت عقولهم، وراحوا يطوفون بقبور الصالحين وأضرحة الميتين، وينذرون لها ويذبحون، بأعتابها يتمسحون وإياها من دون الله يدعون، ويشدون الرحال إليها وهم لها عاكفون، فبئس ما يصنعون! وإذا ناقشت القوم وجدتهم يقولون: إن صاحب الضريح له كرامات ومعجزات، وكم شفى من مريض ورد من غائب! أقول: لقد أغواكم الشيطان وأضلكم، وعن طريق الهدى والحق أبعدكم وفي

(١) رواه الترمذي برقم [٢٥١٦]، وصححه الألباني في «صحيح البخاري» برقم [٧٩٥٧].

شرك الشرك بالله والكفر به أوقعكم فما هذا الذي تزعمون إلا خدع من إبليس أو كذب مفترى أتى به مفتر كذاب.

ثم تلفت من حولك تجد أناساً آخرين تعلقت قلوبهم بدجال أثيم ومشعوذ خبيث لئيم يستنزف أموالهم، ويخرب قلوبهم من الإيمان، ويملاً حياتهم بالآلام والقلق والرهق. والأعجب أن ترى شريحة من المتعلمين عميت قلوبهم وصدقوا تلك الترهات التي أتى بها أولئك الدجالون الذين يتعبدون للجن ويستعملونهم في مآربهم الخبيثة ولكن صاحب البصيرة يعلم قول الله تعالى: ﴿ وَمَا هُمْ بِضَارِّينَ بِهِ مِنْ أَحَدٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ ﴾ [البقرة: ١٠٢]، ولكن صاحب البصيرة يعلم قول الله جلَّ جلاله: ﴿ إِنَّمَا صَعَوْا كَيْدَ سِحْرٍ وَلَا يُفْلِحُ السَّاحِرُ حَيْثُ أَتَى ﴾ [طه: ٦٩].

ثم تلفت إلى جهة ثالثة فسوف تجد من يثق في غير الله كثفته في الله أو أكثر ويظن أن هذا المخلوق يملك له رزقاً وتراه يخاطبك بكلمات جوفاء نكراء فيقول: إن فلاناً ولي نعمتي، ورزقي ورزق أولادي عليه، فهل هذه كلمة تخرج من قلب سليم؟! هل هذا اعتقاد يكون في قلب صحيح بصير؟! قال تعالى: ﴿ إِنَّ الَّذِينَ تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ لَا يَمْلِكُونَ لَكُمْ رِزْقًا فَابْتَغُوا عِنْدَ اللَّهِ الرِّزْقَ وَاعْبُدُوهُ وَأَشْكُرُوا لَهُ ۗ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴾ [الجن: ١٧]، إن من الناس من يبيع دينه من أجل الرزق، من يفرط في طاعة ربه أو يعطلها بالكلية من أجل رزق وغفل هذا عن حقيقة عقدية أصيلة وهي أن خزائن الله مملوءة لا تنفذ وأن الله تعالى لا ينفد عطاؤه، ولا تحد نعمائه ولا يرد قضاؤه، ولا يضيع أولياؤه، ولا تنفذه طاعة ولا تضره معصية فهو الغني الكريم جلَّ جلاله وفي الحديث القدسي قال ربنا الرحيم العلي جلَّ جلاله: «يا عبادي، كلكم ضال إلا من هديته، فاستهدوني أهدكم، يا عبادي، كلكم جائع إلا من أطعمته فاستطعموني أطعمكم، يا عبادي كلكم عارٍ إلا من كسوته فاستكسوني أكسكم، يا عبادي إنكم تخطئون بالليل والنهار وأنا أغفر الذنوب جميعاً فاستغفروني أغفر لكم، يا عبادي إنكم لن تبلغوا ضري فتضروني ولن تبلغوا نفعي فتنفعوني، يا عبادي لو أن أولكم وأخركم وانسكم وجنكم كانوا على أتقى قلب رجل واحد منكم ما زاد ذلك في ملكي شيئاً، يا عبادي لو أن

أولكم وآخركم وإنسكم وجنكم كانوا على أفجر قلب رجل واحد منكم ما نقص ذلك من ملكي شيئاً، يا عبادي لو أن أولكم وآخركم وإنسكم وجنكم قاموا في صعيد واحد فسألوني فأعطيت كل إنسان مسألته ما نقص ذلك مما عندي إلا كما ينقص المحيط إذا أدخل البحر»^(١)، الله أكبر! إنه حديث يملأ القلب بالهيبة والتعظيم لله الملك العليم الحكيم جَلَّ جَلَالُهُ فكل شيء في الكون لا يجري إلا بأمره ولا يقع في هذه الحياة أمر إلا بإذنه، فمن أبصر هذا المعنى فإنه لا بد أن يصرف كل عبادة قلبه لربه جَلَّ جَلَالُهُ وأن يحذر كل الحذر من وقوع شرك في عمله؛ لأن الشرك يحبط كل عمل، قال الله تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَوْحَىٰ إِلَيْكَ وَإِلَى الَّذِينَ مِن قَبْلِكَ لَئِن أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ وَلَتَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾ [الزُّمَرُ: ٦٥].

ثم تلتفت إلى جهة رابعة فتجد أناساً عميت قلوبهم عن صفات الكمال لله جَلَّ جَلَالُهُ فمنهم من يزعم أن الله موجود في كل الوجود بذاته، ومنهم من يزعم أن الله لا يتصف بأن له وجهًا ويدًا، ومنهم من يشبه صفات الله بصفات خلقه وكل ذلك ضلال وعمه والحق هو ما ورد في كتاب الله وسنة رسوله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ من غير تحريف ولا تمثيل ولا تكييف ولا تعطيل، نعم نؤمن بكل ما وصف الله به نفسه ووصفه به رسوله لأنه لا يصف الله أعلم بالله من الله: ﴿قُلْ ءَأَنْتُمْ أَعْلَمُ أَمِ اللَّهُ﴾ [البَقَرَةُ: ١٤٠]، ولأنه لا يصف الله بعد الله أعلم بالله من رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لأنه: ﴿وَمَا يَنْطِقُ عَنِ الْهَوَىٰ ۗ إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَىٰ﴾ [الحَجَرُ: ٣-٤]، فإذا قال ربنا بأنه سبحانه قد استوى على العرش أي علا وارتفع وبأن له وجهًا وأن له يدين وغير ذلك من صفات الجلال والكمال فما الداعي إلى صرف معنى الصفة عن ظاهره؟! وما الداعي إلى تعطيل الصفة وتحريفها وإثبات صفة أخرى كمن يقول: اليد بمعنى القدرة أو النعمة، وبأن استوى بمعنى استولى كل هذا انحراف عن الاستقامة في فهم صفات الله جَلَّ جَلَالُهُ إن ربنا جَلَّ جَلَالُهُ قد قال: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ ۗ

وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ ﴿ [التَّوْبَةِ: ١١]، فالشطر الأول من الآية رد على المشبهة الذين شبهوا صفات الله بصفات خلقه، والشطر الثاني من الآية رد على من عطلوا صفات الله جَلَّ جَلَالُهُ وحر فوها عن ظاهر معناها، ولكي ينضبط فهمك لصفات الله وأسمائه جل وعلا لا بد من ثلاثة أصول: الأول- إثبات بلا تمثيل، الثاني- تنزيه بلا تعطيل، والثالث- قطع الطمع عن إدراك كيفية الصفة وحققتها كما سئل الإمام مالك رَحِمَهُ اللهُ عن صفة الاستواء فقال له السائل: ﴿الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى﴾ [طه: ٥]، كيف استوى؟ فأطرق مالك وأخذته الرخصاء [أي العرق] ثم رفع رأسه فقال: الرحمن على العرش استوى كما وصف نفسه ولا يقال كيف؟ وكيف عنه مرفوع، وأنت صاحب بدعة، أخرجوه.

وفي رواية عن مالك أنه قال: كيف غير معقول، والاستواء منه غير مجهول، والإيمان به واجب، والسؤال عنه بدعة^(١).

إن أهم قضية في حياتك أن تعيش على اعتقاد صحيح؛ لأن العقيدة هي أصل الدين ولا يقبل الله من عبد عملاً إلا إذا كان اعتقاده سليماً خالياً من الشرك بصوره المتعددة، فصحح عقيدتك يصح كل شيء في حياتك وتبصر حقائق الوجود والحياة في معناها الحقيقي الذي أراد الله جَلَّ جَلَالُهُ ورسوله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

ثانياً- البصيرة بحقيقة الدنيا والآخرة:

قال الله جل وعلا: ﴿قُلْ مَنْعُ الدُّنْيَا قَلِيلٌ وَالْآخِرَةُ خَيْرٌ لِمَنِ اتَّقَى وَلَا يُظْلَمُونَ فَتِيلًا﴾ [النساء: ٧٧]، وقال جَلَّ جَلَالُهُ: ﴿بَلْ تُؤْثِرُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا ﴿١٦﴾ وَالْآخِرَةَ خَيْرٌ وَأَبْقَى﴾ [الاحزاب: ١٦]- [١٧]، وقال تَبَارَكَ وَتَعَالَى: ﴿اعْلَمُوا أَنَّمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا لَعِبٌ وَهُوَ زِينَةٌ وَتَفَاخُرٌ بَيْنَكُمْ وَتَكَاثُرٌ فِي الْأَمْوَالِ وَالْأَوْلَادِ كَمَثَلِ غَيْثٍ أَعْجَبَ الْكُفَّارَ بِنَائِهِ، ثُمَّ يَسِيحُ فترله مُصْفَرًّا ثُمَّ يَكُونُ حُطَمًا وَفِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَمَغْفِرَةٌ مِّنَ اللَّهِ وَرِضْوَانٌ وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا مَتَاعُ الْعُرُورِ﴾ [الحديد: ٢٠].

(١) «مختصر العلو للعلو الغفار» للحافظ الذهبي ص [١٤١] رقم [١٣١-١٣٢] ط. المكتب الإسلامي.

وفي صحيح مسلم عن المستورد بن شداد رضي الله عنه قال: قال رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «ما الدنيا في الآخرة إلا كما يجعل أحدكم إصبه في اليم فلينظر بيم يرجع»^(١)، إن من طالع نصوص القرآن والسنة رأى أن الدنيا ضئيلة قليلة ذاهبة زائلة وأن الآخرة هي الباقية الخالدة وحين يفهم ذلك تراه حريصاً على إعمار آخرته وعبادة ربه ويزهد في هذه الدنيا التي غرَّت وأضلت كثيراً من الناس وصاروا لها وحدها يعملون ومن أجلها يكافحون ويمكرون، غرقوا في طلبها وتحصيلها، وأكلوا الحرام ونسوا الآخرة وكل ذلك عمى عن حقيقتها وحاله كحال من ظن البعرة تمره وأن الورم شحم، حاله كحال الشارب من ماء البحر كلما شرب منه ازداد عطشاً حتى يموت وتتفجر بطنه، هناك أناس كثيرون عموا عن الآخرة ونسوا لقاء الله وشغلتهم هذه الدنيا عن دينهم فزهدوا فيه وباعوه بعرض من الدنيا قليل ولذلك فقد حذرنا ربنا من فتنة الدنيا فقال جَلَّ جَلَالُهُ:

﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ فَلَا تَغُرَّنَّكُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا وَلَا يَغُرَّنَّكُم بِاللَّهِ الْغُرُورُ ﴾ [فاطر: ٥]، وقد قيل: حب الدنيا رأس كل خطيئة، قلت: نعم فما سرق من سرق ولا زنا من زنا ولا أكل الربا من أكله ولا قتل من قتل ولا حسد من حسد إلا من أجل الدنيا، ولا قطعت الأرحام وما أكل الحرام إلا من أجل الدنيا.

إن الدنيا هي التي أقعدت كثيراً من الناس عن البذل لله والتضحية بالنفس والمال في سبيل الله جَلَّ جَلَالُهُ، قال تعالى: ﴿ يَتَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا مَا لَكُمْ إِذَا قِيلَ لَكُمْ أَنْفِرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَتَأْتَلْتُمْ إِلَى الْأَرْضِ أَرْضَيْتُمْ بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا مِنَ الْآخِرَةِ فَمَا مَتَّعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا فِي الْآخِرَةِ إِلَّا قَلِيلٌ ﴾ [التوبة: ٣٨]، والمؤمن الصادق اليقظ هو من يرى حقيقة الدنيا فيعطئها حجمها ويرى حقيقة الآخرة فيبذل كل البذل من أجل أن يكون فيها من الفائزين السعداء قال الله جَلَّ جَلَالُهُ: ﴿ مَنْ كَانَ يُرِيدُ الْعَاجِلَةَ عَجَلْنَا لَهُ فِيهَا مَا نَشَاءُ لِمَنْ نُرِيدُ

ثُمَّ جَعَلْنَا لَهُ جَهَنَّمَ يَصَلُّهَا مَذْمُومًا مَدْحُورًا ﴿١٨﴾ وَمَنْ أَرَادَ الْآخِرَةَ وَسَعَىٰ لَهَا سَعْيَهَا وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَٰئِكَ كَانَ سَعْيُهُمْ مَشْكُورًا ﴿الْإِنشَاء: ١٨-١٩﴾، اللهم اجعلنا ممن عمل للآخرة ولا تجعل الدنيا أكبر همنا ولا مبلغ علمنا.

وكل بساط عيش سوف يطوى
وإن طال الزمان به وطاب
ولله رد من قال:

لا تركزن إلى القصور الفاخرة
واذكر عظامك حين تمسي ناخرة
وإذا رأيت زخارف الدنيا فقل
يارب إن العيش عيش الآخرة

ثالثاً - البصيرة بالسنة والبدعة:

أكمل الهدي هدي محمد صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وما مات رسول الله إلا بعد أن تم الدين ولم يترك النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ خيراً إلا ودلنا عليه وما ترك شراً إلا وحذرنا منه، والعبادات توقيفية فلا يجوز أن يحدث الإنسان شيئاً في الدين ليتقرب به إلى الله إلا إذا كان قد ورد في كتاب الله أو في سنة رسوله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وكل عمل لا يوافق سنة رسول الله صلوات الله عليه وسلامه فهو مردود على صاحبه قال رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «من أحدث في أمرنا ما ليس منه فهو رد»^(١)، وما ابتدع الناس في الدين بدعة إلا رفعت في مقابلها سنة، والبدعة من أخطر الأمور على الدين؛ حيث إنها تشوه معالم الدين، ويضل بسببها كثير من الناس، وتضيع أعمالهم هباءً منثوراً بسبب أن هذه العبادات لم توافق هدى سيد البشرية رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ خذ مثلاً وقس عليه في كل سنة يحتفي جمهور عريض من المسلمين بالمولد النبوي والإسراء والمعراج وليلة النصف من شعبان ولكن صاحب البصيرة ينظر فيرى أن رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لم يحتفل قط بشيء من ذلك وكذلك كل الصحابة والتابعين لم يحتفلوا بذلك وهم أعلم بدين الله وأشد توفيراً له منا فيقول: لو كان خيراً لسبقونا إليه، فيسلم له دينه حينئذٍ ويعصمه الله من الوقوع في البدع إننا نسأل هذه الجماهير العريضة

(١) رواه البخاري برقم [٢٦٩٧]، ومسلم برقم [١٧١٨].

التي تعبدت لله بمثل هذه البدع جهلاً منهم واتباعاً للزائغين الذين يحسنون بهم الظن وقد يعذر العامي المقلد لكن ما عذر من اختار العمى وهو عالم؟! نقول لأولئك المحتفلين: لا نشك في حبكم لرسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ولكن هل تأملتُم هذه الحجة لعل الله يجعل فيها هداية للقلوب: لقد مكث رسول الله عليه الصلاة والسلام بعد النبوة ثلاثة وعشرين عاماً فهل سمعتم قط أن رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ احتفل بمولده وأقام الاحتفالات ووزعت الحلوى وأنشدت القصائد في مدحه؟! والجواب: كلا لم يرد شيء من ذلك عن رسول الله نقول إذاً فلنقتد ولنهتد بفعل رسول الله صلوات الله وسلامه عليه.

سؤال آخر: هل دعانا رسول الله إلى الاحتفال بيوم مولده؟! الجواب كلا. سؤال ثالث: هل نحن أكثر حُباً لرسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ من الصحابة وأعلم بحقوق النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ منهم؟! الجواب كلا، فنقول: ولم ينقل قط عن الصحابة والتابعين أنهم احتفلوا بميلاد رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فهل هديهم أكمل وأسلم أم هدي المخرفين الذين ضلوا عن سواء السبيل؟!

وثمة سؤال: أيهما أولى أن يُحتفل به ميلاد الرسول صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أم بعثته ونزول الوحي عليه في غار حراء؟! لماذا جعلتم الميلاد أولى مع أن البعثة هي الميلاد الحقيقي للدعوة النبوية؟!

إن صاحب البصيرة لا يحتاج إلى مجادلة ومناقشة وإنما إذا قيل له: هذا أمر لم يرد عن رسول الله ولا عن أصحابه والتابعين تركه وعلم أن الخير ما فعلوه وأن الشر ما عرضوا عنه وتركوه، فإذا اهتدى واقتدى بهدي الرسول صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وأصحابه سلم له دينه ونجا من البدع المضلة المهلكة التي تؤدي بصاحبها إلى النار عياداً بالله، فكل ما لم يرد فيه نص ولم يرد عن السلف فعله؛ فاجتنبه واجعل دليلك إلى ربك قرآنه وسنة نبيه وهدي السلف الصالحين رضوان الله عليهم.

رابعاً - البصيرة بعظمة الإسلام وبقائه:

الإسلام هو دين الله ولا يقبل الله من أحدٍ ديناً سواه قال الله تعالى: ﴿إِنَّ الدِّينَ عِنْدَ اللَّهِ الْإِسْلَامُ﴾ [التوبة: ١٩]، وقال جلّ جلاله: ﴿وَمَنْ يَبْتَغِ غَيْرَ الْإِسْلَامِ دِينًا فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِي الْآخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾ [التوبة: ٨٥]، ومهما دبر المشركون واثمروا، وخططوا ومكروا؛ فإن الإسلام باقٍ محفوظ بحفظ الله له، ولن تستطيع قوة مهما بلغت أن تستأصل الإسلام أو أن تطفئ نوره قال الله تعالى: ﴿يُرِيدُونَ أَنْ يُطْفِئُوا نُورَ اللَّهِ بِأَقْوَاهِمَ وَيَأْبَى اللَّهُ إِلَّا أَنْ يُتِمَّ نُورَهُ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ﴾ (٣٢) هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَىٰ وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظَاهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ ﴿ [التوبة: ٣٢-٣٣]، إنهم يخططون ويمكرون وينفقون لحرب الإسلام وسحقه ولكن تديبرهم يكون إلى زوال؛ لأن الله ربي وربكم قال: ﴿إِنَّ الدِّينَ كَفَرُوا يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ لِيُضِدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ فَسَيُنْفِقُونَهَا ثُمَّ تَكُونُ عَلَيْهِمْ حَسْرَةً ثُمَّ يُغْلَبُونَ﴾ [الأنفال: ٣٦]، فيا أخي لا تنخدع بحضورتهم الزائفة، ولا يغرنك ما هم فيه الآن من قوة ووصولان فما استأسدوا علينا وما أذلونا إلا بسبب ضعف انتمائنا لديننا، وعدم تمسكنا به، وإيثارنا الدنيا ومتاعها عن البذل لإعلاء كلمة الله فلا تظن أن العدو غلب ولكن الحافظ أعرض ولو عدنا لعاد الله لنا بالعزة والنصرة والتمكين قال الله رب العالمين في كتابه الحكيم المبين: ﴿لَا يَغْرَنَكَ تَقَلُّبُ الدِّينِ كَفَرُوا فِي الْبَلَدِ﴾ (١١٦) مَتَّعْ قَلِيلٌ ثُمَّ مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمَ وَبِئْسَ الْمَهَادُ ﴿ [التوبة: ١٩٦-١٩٧]، اطمئن فالإسلام باقٍ منتصر، ولكن أين بذلك أين عمالك أين سعيك لإعزازة ونصره؟!

وقال رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «ليبلغن هذا الأمر ما بلغ الليل والنهار، ولا يترك الله بيت مدر ولا وبر إلا أدخله الله هذا الدين، بعز عزيز، أو بذل ذليل، عزاً يعز الله به الإسلام، وذلاً يذل الله به الكفر» (١).

(١) رواه أحمد (١٧٦/٢)، والدارمي (١٢٦/١)، وصححه الألباني في «الصحيحة» برقم [٤].

وفي صحيح مسلم وغيره من حديث ثوبان أن النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: «إن الله زوى لي الأرض فرأيت مشارقتها ومغاربتها وإن أمتي سيبليغ ملكها ما زوى له منها»^(١).

وعن أبي قبيل قال: كنا عند عبد الله بن عمرو بن العاص وسئل: أي المدينتين تفتح أولاً القسطنطينية أو رومية؟ فدعا عبد الله بصندوق له حلق قال: فأخرج منه كتاباً قال فقال عبد الله: بينما نحن حول رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ نكتب إذ سئل رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: أي المدينتين تفتح أولاً أفسطنطينية أو رومية؟ فقال رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «مدينة هرقل تفتح أولاً يعني قسطنطينية»، قال الألباني رَحِمَهُ اللهُ عقب هذا الحديث في الصحيحة: ورومية هي روما كما في «معجم البلدان» وهي عاصمة إيطاليا اليوم وقد تحقق الفتح الأول على يد محمد الفاتح العثماني كما هو معروف وذلك بعد أكثر من ثمانمائة سنة من إخبار النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بالفتح، وسيتحقق الفتح الثاني بإذن الله تعالى ولا بد ولتعلمن نبأه بعد حين، ولا شك أيضاً أن تحقيق الفتح الثاني يستدعي أن تعود الخلافة، إلى الأمة المسلمة وهذا مما يشرنا به صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بقوله في الحديث: «تكون النبوة فيكم ما شاء الله أن تكون ثم يرفعها الله إذا شاء أن يرفعها، ثم تكون خلافة على منهاج النبوة فتكون ما يشاء الله أن تكون، ثم يرفعها الله إذا شاء أن يرفعها ثم تكون ملكاً عاصياً فيكون ما شاء الله أن تكون ثم يرفعها الله إذا شاء أن يرفعها، ثم تكون ملكاً جبرياً فتكون ما شاء الله أن تكون ثم يرفعها الله إذا شاء أن يرفعها ثم تكون خلافة على منهاج النبوة ثم سكت»^(٢).

أي أخي، كن ذا بصيرة وثقة بوعد الله ورسوله، فالإسلام قادم، الإسلام باق، الإسلام منتصر بنصرة الله له، محفوظ بحفظ الله له، ومهما علا الباطل وظهر قوياً أمام الناظرين؛ فإنه في الحقيقة ضعيف خاوٍ، سرعان ما ينزوي ويزول إذا نهض المسلمون من

(١) رواه مسلم برقم [٢٨٨٩]، وأبو داود برقم [٤٢٥٤]، والترمذي برقم [٢١٧٦].

(٢) انظر «سلسلة الأحاديث الصحيحة» للألباني (١/٣٣-٣٤) ط. مكتبة المعارف، والحديث رواه أحمد

(٤/٢٧٣) وصححه الألباني في «الصحيحة» برقم [٥].

رقدتهم، واستيقظوا من غفلتهم، وقاموا بحق دينهم، ودعوا الخلق إليه بحق، فالباطل أبتز لا نسب له ولا ناصر له إلا حثالة من السفهاء الجهلة الذين لو عرفوا حقيقة الباطل لكانوا من المحاربين له ويكفيننا أماناً وعزة قول ربنا جَلَّالَهُ: ﴿ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ مَوْلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَأَنَّ الْكَافِرِينَ لَا مَوْلَى لَهُمْ﴾ [مَحَبَّة: ١١]، فإياك أخي أن تنخدع بما فيه أهل الكفر في هذا الزمان من بهرجة وحضارة مزعومة مكذوبة، ولا تياس فإن اليأس ليس له وجود في قلوب المؤمنين، ولا تقنط فإن الله معنا وهو خير الناصرين، ولا تمن ولا تضعف وحقق الإيمان تجد معية الله لك، وقرب الله منك وتأييد الله ونصرته لك، قال عَزَّجَلَّ: ﴿وَلَا تَهِنُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَنْتُمْ الْأَعْلَوْنَ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ [الْعَبْرَات: ١٣٩].

خامساً - البصيرة بالفتن:

قال الله تعالى: ﴿أَحْسِبَ النَّاسَ أَنْ يُتْرَكُوا أَنْ يَقُولُوا ءَامَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ﴾ [الْحَجَّات: ٢]، وقال الله جَلَّالَهُ: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَعْبُدُ اللَّهَ عَلَى حَرْفٍ فَإِنْ أَصَابَهُ خَيْرٌ اطْمَأَنَّ بِهِ وَإِنْ أَصَابَهُ فِتْنَةٌ أُنْقَلَبَ عَلَى وَجْهِهِ خَسِرَ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةَ ذَلِكَ هُوَ الْخُسْرَانُ الْمُبِينُ﴾ [الْمَيْخ: ١١]، وقال الله عَزَّجَلَّ: ﴿الَّذِي خَلَقَ الْمَوْتَ وَالْحَيَاةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا﴾ [الْمَيْلَك: ٢]، الفتن واقعة لا محالة لكن من كان بصير القلب عارفاً بطبائعها وعواقبها ونهايتها عصمه الله منها، وأقوى سلاح يواجه به المرء هذه الفتن إيمان راسخ وعلم دقيق صحيح نافع، والفتن في هذا الزمان تتتابع تترى كالسحب المتراكمة، والأمواج المتلاطمة فتطيش فيها عقول، وتموت فيها قلوب، وتتكس فيها نفوس، ويغرق في دواماتها الكثير والكثير ولا ينجو إلا من عصمه ربُّه، وكان قد استعد قبل ذلك بأسباب النجاة.

يقول المقدم حفظه الله: وقد شبه النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ الفتنة بقطع الليل المظلم أي الذي لا قمر فيه ولا ضياء، فالساري فيه على شفا هلكة إن لم يكن معه نور يبصر به مواقع

كثير من الغارقين في المعاصي والشهوات عميت قلوبهم عن حقيقة ما هم فيه، فليس لهم من لذاتهم إلا آلام تعقبها حسرات، وفضيحة يتلوها خزي وندامة ثم تذهب اللذات وتبقى الآثام في صحف الأعمال أين لذات الأعوام الماضية التي تمتع بها الغافلون؟! بل أين لذة الأمس التي عاند من أجلها ربه، وباع فيها إيمانه وهذا من أجل شهوة محرمة لا بقاء لها.

تضى اللذادة ممن نال صفوتها من الحرام ويبقى الوزر والعار
تبقى عواقب سوء من مغبتها لا مرحباً بلذة من بعدها النار

الله أكبر! ما أشد غفلة العصاة أولئك الذين يقضون الليل والنهار في معصية الله، منهم شباب وفتيات، في المعاهد والجامعات، صارت حياتهم كل حياتهم لذات وضحكات، وزنا ومكالمات، وكم رأوا بينهم من عظات، فلانة قد فضحت، وفلان قد قتل؛ لأنه هتك عرضاً، وفلانة مات أبوها غمًا لخبيث ما فعلت، وكم فرقت من أسر وهدمت من بيوت، وحلت نكبات وآلام بين قوم كانوا آمنين، ولكن لما غرتهم الشياطين، وخذعتهم الشهوات انساقوا وراء نزواتهم ونسوا نظر ربهم إليهم واطلاع الله عليهم، فخلعت عنهم أوصاف الإيمان وحلت بهم صفات أهل الفسوق والعصيان، فهل لو نظر العاقل إلى تلك الثمرات المرة والعواقب الأليمة التي يجنيها المرء من عصيانه لمولاه أكان يؤثر لذة محرمة على عفة مكرمة؟! أكان يؤثر اتباع الشيطان وموافقة الخبثاء من الأصدقاء والخلان على طاعة ربه ورضوانه؟! أفق أيها المسلم وانظر إلى مالك، واطلاع الله على أعمالك وعلمه بسرك وجهرك وكل أحوالك.

قال الشاعر:

الناس في غفلة والموت يوقظهم وما يفيقون حتى ينفذ العمر
يشيعون أهاليهم بجمعهم وينظرون ما فيه قد قبروا
ويرجعون إلى أحلام غفلتهم كأنهم ما رأوا شيئاً ولا نظروا

وقال آخر:

لو فكر العاقل في منتهى حسن الذي يسببه لم يسبه

يقول ابن الجوزي رَحِمَهُ اللهُ: نظرت في سبب دخول جهنم فإذا هي المعاصي، فنظرت في المعاصي، فإذا هي حاصلة من طلب اللذات، فنظرت في اللذات فرأيتها خدعاً ليست بشيء، وفي ضمنها من الأكدار وما يصيرها نغصاً فتخرج عن كونها لذات؛ فكيف يتبع العاقل نفسه ويرضى بجهنم لأجل هذه الأكدار؟ فمن اللذات الزنا، فإن كان المراد إراقة الماء فقد يراق في حلال، وإن كان في معشوق فمراد النفس دوام البقاء مع المعشوق فإذا هي ملكته فالمملوك مملوك، وإن هو قاربه ساعة ثم فارقه فحسرة الفراق تربو على لذات القرب، وإن كان له ولد من الزنا فالفضيحة الدائمة والعقوبة التامة، وتنكيس الرأس عند الخالق والمخلوق.

وأما الجاهل فيرى لذته في بلوغ ذلك الغرض، وينسى ما يجني مما يكدر عيش الدنيا والآخرة.

ومن ذلك شرب الخمر، فإنه تنجيس للثم والثوب، وإبعاد للعقل، وتأثيرات معلومة عند الخالق والمخلوق، فالعجب ممن يؤثر لذة ساعة تجني عقاباً ذهاب الجاه وربما خرج بالعردة إلى القتل.

وعلى هذا فقس جميع المذوقات، فإن لذتها إذا وزنت بميزان العقل لا تنفي بمعشار عشير عواقبها القباح في الدنيا والآخرة، ثم هي نفسها ليست بكثير شيء فكيف تباع الآخرة بمثل هذا؟! سبحان من أنعم على أقوام كلما لاح لهم لذة نصبوا ميزان العقل ونظروا فيما يجني، وتلمحوا ما يؤثر تركها فرجحوا الأصلح، وطمس على قلوب فهي ترى صورة الشيء وتنسى جناياته! ثم العجب أنا نرى من يبعد عن زوجته وهو شاب ليعدو في الطريق فيقال ساعي، فيغلب هواه لطلب ما هو أعلى وهو المدح كيف لا يترك محرماً ليمدح في الدنيا والآخرة؟! ثم قدّر حصول ما طلبت من اللذات وذهاها

وأحسب أنها قد كانت وقد هانت وتخلصت من محنها أين أنت من غيرك؟ أين تعب عالم قد درس العلم خمسين سنة؟ ذهب التعب وحصل العلم، وأين لذة البطال؟ ذهب الراحة وأعقت الندم^(١).

فدونك فاصنع ما تحب فإنما
أي أخي،

تذكر يوم تأتي الله فرداً
وهتكت الستور عن المعاصي
وقد نصبت موازين القضاء
وجاء الذنب منكشف الغطاء

سابعاً- البصيرة بتلبيس إبليس وكيدِه:

قال الله تعالى: ﴿يَتَأْتِيهَا النَّاسُ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ فَلَا تَغْرِبْكُمْ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا وَلَا يَغْرِبْكُمْ بِاللَّهِ الْغُرُورُ

﴿٥﴾ إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُمْ عَدُوٌّ فَاتَّخِذُوهُ عَدُوًّا إِنَّمَا يَدْعُوا حِزْبَهُ لِيَكُونُوا مِنْ أَصْحَابِ السَّعِيرِ ﴿٦﴾ [فَخَاظِرُ: ٥-٦]،

وقال جل ذكره: ﴿وَمَنْ يَتَّخِذِ الشَّيْطَانَ وَلِيًّا مِنْ دُونِ اللَّهِ فَقَدْ خَسِرَ خُسْرَانًا مُبِينًا

﴿١١٩﴾ يَعِدُهُمْ وَيُمَنِّيهِمْ وَمَا يَعِدُهُمُ الشَّيْطَانُ إِلَّا غُرُورًا ﴿١٢٠﴾ [النِّسَاءُ: ١١٩-١٢٠]، الشيطان خبير

بطرق الشر وهو يسعى جاهداً في الليل والنهار لكي يضللك ويصدك عن سبيل الله،

ولن يهدأ قط في التزيين والتسويل والإضلال ما دامت بالمرء حياة؛ فعلى المؤمن أن يكون

بصيراً بحيله دائم الاستعاذة بالله من شره ووسوسته، دائم الذكر لله، فإذا كان الشيطان

لا يغفل عنك فينبغي ألا تغفل عنه وعن كيدِه فإنه حريص كل الحرص على وقوع المرء

في سخط الله وغضبه ومن مكائده وحيله.

١- يخدع الإنسان ويزين له حتى يوقعه في المعصية ثم يشمت به ويضحك منه،

يأمره بالسرقه والزنا والقتل ويدل عليه ويفضحه كما قال تعالى: ﴿وَإِذْ زَيْنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ

أَعْمَلَهُمْ وَقَالَ لَا غَالِبَ لَكُمْ الْيَوْمَ مِنَ النَّاسِ وَإِنِّي جَارٌ لَكُمْ فَلَمَّا تَرَأَتِ الْفُتَاتَانَ نَكَصَ

عَلَى عَقْبِيهِ وَقَالَ إِنِّي بَرِيءٌ مِّنْكُمْ إِنِّي أَرَىٰ مَا لَا تَرَوْنَ إِنِّي أَخَافُ اللَّهَ وَاللَّهُ شَدِيدُ الْعِقَابِ ﴿٤٨﴾ [الأنفال: ٤٨]، وكما قال تعالى: ﴿كَمَثَلِ الشَّيْطَانِ إِذْ قَالَ لِلْإِنْسَانِ اكْفُرْ فَلَمَّا كَفَرَ قَالَ إِنِّي بَرِيءٌ مِّنْكَ إِنِّي أَخَافُ اللَّهَ رَبَّ الْعَالَمِينَ ﴿١٦﴾ [الحشر: ١٦].

٢- يخوف المؤمنين من جنده وأوليائه:

وذلك حتى يقعدوا عن جهادهم وينهزموا أمامهم فلا يأمر ونهم بمعروف ولا ينهونهم عن منكر، وهذا من أعظم كيده لأهل الإيمان، وقد ذكر الله تعالى ذلك عنه فقال: ﴿إِنَّمَا ذَلِكُمُ الشَّيْطَانُ يُخَوِّفُ أَوْلِيَاءَهُ، فَلَا تَخَافُوهُمْ وَخَافُوا مِنِّي إِن كُنْتُمْ مُّؤْمِنِينَ ﴿١٧٥﴾﴾ [الأنفال: ١٧٥]، يقول ابن القيم عليه رحمة الله: والمعنى عند جميع المفسرين يخوفكم بأوليائه قال قتادة: يعظمهم في صدوركم ولهذا قال: ﴿فَلَا تَخَافُوهُمْ وَخَافُوا مِنِّي إِن كُنْتُمْ مُّؤْمِنِينَ﴾ فكلما قوي إيمان العبد زال من قلبه خوف أولياء الشيطان وكلما ضعف إيمانه قوي خوفه منهم^(١).

٣- يشام النفس أي: يختبر نفس الإنسان لينظر ما هي الصفة الغالبة عليه هل هو شجاع مقدام مثلاً أم هو ضعيف الهمة كسول، فإن وجدته ضعيف الهمة خذله عن الطاعات ورماه بمرض القصور والتثاقل عن العبادة وزين ذلك له، فيفرط في عبادة الله ويصل به الحال إلى ترك السنن والواجبات ثم الوقوع في المحرمات أما إن وجدته الشيطان شجاعاً جريئاً نشيطاً فإنه يدفعه إلى الغلو والإفراط ويوهمه أن المأمور به في الشرع لا يكفيه قال بعض السلف: ما أمرنا الله بأمرٍ إلا وللشيطان فيه نزغتان: إما إلى تفريط ونقصير، وإما إلى مجاوزة وغلو ولا يبالي بأيها ظفر.

يقول ابن القيم رَحِمَهُ اللهُ: وقد اقتطع أكثر الناس إلا أقل القليل في هذين الواديين: وادي التقصير ووادي المجاوزة والتعدي فقوم قصر بهم عن الإتيان بواجبات الطهارة وقوم تجاوز بهم إلى مجاوزة الحد بالوسواس وقوم قصر بهم في حق الأنبياء وورثتهم حتى

(١) «إغاثة اللهفان» ص [١١٨] ط. مكتبة الإيمان.

قتلوهم، وتجاوز بآخرين حتى عبدوهم، وقصر بقوم في خلطة الناس حتى اعتزلوهم في الطاعات كالجمعة والجماعات وتجاوز بآخرين حتى خالطوهم في الظلم والمعاصي والآثام^(١)، فعلى المرء المسلم أن يكون بصيراً بكيد عدوه، متيقظاً لأساليبه في الإغواء والإضلال، حريصاً على مخالفته، دائم الاستعانة بالله والاستعاذة به من شره.

سبل تحصيل البصيرة

من أعظم النعم التي ينعم الله بها على عبد من عباده أن يؤتیه بصيرة تعصمه من الزلل، وفهماً يحفظه من الانحراف والشطط، لاسيما في هذا الزمان الذي اختلطت فيه الأوراق، واشتبهت فيه الأمور وتأججت نيران الكيد للإسلام والمسلمين، ما أحوج المسلم في هذه الأيام إلى بصيرة يفرق بها بين الحق والباطل، والسنة والبدعة، والهدى والضلال ولكن كيف يحصل المرء البصيرة؟ وهل إلى ذلك من سبيل؟ الجواب: من فضل الله علينا أن جعل هذه البصيرة ميسرة للتحصيل متحققة لمن أرادها وصدق في طلبها، ومن هذه الوسائل التي تستجلب للمرء بصيرة في دينه ما يلي:

١- طلب العلم وسؤال العلماء؛

بطلب العلم يستبين الطريق وتتضح معالم الحق، بطلب العلم يصحح المرء نيته وعبادته، بطلب العلم يزداد المرء خشية الله وتوكلاً عليه، بطلب العلم يزداد المرء بصيرة بدينه ومعرفة بعظمته، بطلب العلم يعرف سفاهة الكفر وخبث الضلال والانحراف عن صراط الله المستقيم، ولا يستوي أبداً عالم وجهول قال الله تعالى: ﴿قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْمَلُونَ وَالَّذِينَ لَا يَعْمَلُونَ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُولُو الْأَلْبَابِ﴾ [الزُّمَرُ: ٩]، لقد جعل الله تعالى أهل الجهل بمنزلة العميان الذين لا يبصرون، فقال تعالى: ﴿أَفَمَنْ يَعْلَمُ أَنَّمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ الْحَقُّ كَمَنْ هُوَ

(١) المصدر السابق [١٢٤] باختصار وقد توسع ابن القيم في إيراد أمثلة لذلك فإن شئت الوقوف على تفصيل مكايد الشيطان فارجع إلى كتاب «إغاثة اللهفان» أو «تلبیس إبلیس» الأول لابن القيم والثاني لابن الجوزي .

أَعْمَى ﴿ [الرَّحْمَةُ: ١٩] ، فليس ثمة إلا عالم أو أعمى ، قال رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «طلب العلم فريضة على كل مسلم»^(١) . وفي الصحيحين أنه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: «من يرد الله به خيراً يفقهه في الدين»^(٢) ، من أهم السبل لتحصيل البصيرة طلب العلم من أهل العلم المحققين الربانيين وسؤالهم عما اشتبه وحضور مجالسهم وجمع أقوالهم لاسيما في النوازل التي تنزل بالأمة فالعلماء هم ورثة الأنبياء ، والدنيا كلها ظلمة إلا مجالس العلماء ، والفرق بين العالم والجاهل كالفرق بين النهار والليل ، والأحياء والأموات والبصير والأعمى كما قيل:

وفي الجهل قبل الموت موت لأهله وأجسامهم قبل القبور قبور
وأرواحهم في وحشة من جسومهم وليس لهم حتى النشور نشور

قال الإمام ابن عبد البر رَحِمَهُ اللَّهُ: قد أجمع العلماء على أن من العلم ما هو فرض متعين على كل امرئ في خاصة نفسه، ومنه ما هو فرض على الكفاية إذا قام به قائم سقط فرضه عن أهل ذلك الموضوع^(٣) .

بالعلم تزال حُجُبُ الغفلة والجهل عن القلوب ويبصر الإنسان الحق واضحا ظاهرا فيستمسك به ويسير في حياته عليه؛ فتعلم تُعصم وتوفق وتسدد ويؤتك الله بصيرة في دينك، ولا تفرط في دروس العلم حتى لا تصاب بظلمة القلب وقسوته.

٢- التقوى؛

ودليل ذلك قول الله تَبَارَكَ وَتَعَالَى في سورة الأنفال: ﴿ يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِن تَنقُوا اللَّهَ يَجْعَلْ لَكُمْ فُرْقَانًا وَيُكَفِّرْ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ ﴾ .

[الأنفال: ٢٩]

(١) رواه ابن ماجه برقم [٢٢٤] وصححه الألباني في «صحيح ابن ماجه» برقم [١٨٣].

(٢) رواه البخاري برقم [٧١]، ومسلم برقم [١٠٣٧].

(٣) «جامع بيان العلم وفضله» (١/١٠-١١) ط. دار الكتب العلمية.

قال ابن زيد وابن إسحاق: ﴿يَجْعَلُ لَكُمْ فُرْقَانًا﴾ هدى في قلوبهم يفرقون به بين الحق والباطل^(١)، وقال الألويسي البغدادي رَحِمَهُ اللهُ: ﴿يَأْتِيهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنْ تَنَقَّوْا﴾ في كل ما تأتون وما تذرّون ﴿يَجْعَلُ لَكُمْ﴾ بسبب ذلك الاتقاء ﴿فُرْقَانًا﴾ أي: هداية ونورًا في قلوبكم تفرقون به بين الحق والباطل كما روي عن ابن جريج وابن زيد، أو نصرًا يفرق بين المحق والمبطل بإعزاز المؤمنين وإذلال الكافرين كما قال الفراء، أو نجاة في الدارين كما هو ظاهر كلام السدي، أو مخرجًا من الشبهات كما جاء عن مقاتل أو ظهورًا يشهر أمركم وينشر صيتكم كما يشعر به كلام محمد بن إسحاق^(٢).

فالتقوى قريب من ربه ومن كان من ربه قريبًا فإن الله يتولاه ويحفظه من الزلل والانحراف، ويرزقه علمًا نافعًا كما قال تعالى: ﴿وَأَتَقُوا اللَّهَ وَيَعْلَمُكُمْ اللَّهُ﴾ [البقرة: ٢٨٢]، وبالتقوى تيسر الأمور وتفرج الكرب قال الله تعالى: ﴿وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مِنْ أَمْرِهِ يُسْرًا﴾ [الطلاق: ٤].

وقال تعالى: ﴿وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجًا﴾^(٣) ويرزقه من حيث لا يحتسب ﴿[الطلاق: ٢-٣]، فالتقوى تكون سببًا في زيادة العلم وزيادة الهدى وزيادة الإيمان وزيادة الحفظ، وزيادة الفهم والبصيرة وبالتقوى يكون الله معك فإذا كان الله معك سددك وحفظك قال تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ مَعَ الَّذِينَ اتَّقَوْا وَالَّذِينَ هُمْ مُحْسِنُونَ﴾ [الحج: ١٢٨].

٣- تلاوة القرآن بتدبر وفهم؛

القرآن نور البصائر والعقول، وسبيل زكاة النفوس والقلوب لاسيما إذا قرأ المرء القرآن بالتدبر والتأمل والمعاشة لمعانيه وربط ما ورد في القرآن بالواقع حينئذ يجد المرء ما يؤنسه وما يهديه ويصره بحقائق الكون وما فيه، وهل هناك كتاب في الوجود يوقظ

(١) «زاد المسير في علم التفسير» لابن الجوزي (٣/٢٦٣) ط. دار الكتب العلمية.

(٢) «روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني» (٦/٢٨٥) ط. دار الفكر.

الفطر ويحي القلوب، ويظهر النفوس كهذا القرآن المجيد الذي هو كلام الحكيم الخبير جَلَّ جَلَالُهُ؟! إن الحياة لا يمكن أن تستقيم قط إلا في نور هذا القرآن العظيم، وعلى حسب نصيب المرء من القرآن يكون نصيبه من النور قال الله تعالى: ﴿وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا مَا كُنْتَ تَدْرِي مَا الْكِتَابُ وَلَا الْإِيمَانُ وَلَكِن جَعَلْنَاهُ نُورًا نَّهْدِي بِهِ مَن نَّشَاءُ مِنْ عِبَادِنَا وَإِنَّكَ لَتَهْدَى إِلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ [الشورى: ٥٢] (١).

قال صديق حسن خان: ﴿وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا﴾ المراد به القرآن قاله ابن عباس وقيل: النبوة، قال مقاتل: يعني الوحي بأمرنا ومعناه القرآن؛ لأنه يهتدى به ففيه حياة من موت الكفر ثم قال: ﴿وَلَكِن جَعَلْنَاهُ نُورًا﴾ أي: جعلنا الروح الذي أوحيناه إليك ضياءً ودليلاً على التوحيد والإيمان ﴿نَهْدِي بِهِ﴾ المراد به الهداية الموصلة بدليل قوله ﴿مَنْ نَّشَاءُ﴾ هدايته ﴿مَنْ عِبَادِنَا﴾ ونرشده إلى الدين الحق (٢).

وما استجلبت بصيرة القلب بمثل القرآن فإن الله تَبَارَكَ وَتَعَالَى سَمَاهُ بِصَائِرِ قَالَ تَعَالَى: ﴿قَدْ جَاءَكُمْ بَصَائِرٌ مِّن رَّبِّكُمْ فَمَنْ أَبْصَرَ فَلِنَفْسِهِ وَمَنْ عَمِيَ فَعَلَيْهَا وَمَا أَنَا عَلَيْكُمْ بِحَفِيظٍ﴾ [الأنعام: ١٠٤]، والبصائر كما يقول الطبري رَحِمَهُ اللهُ: ﴿بَصَائِرٌ مِّن رَّبِّكُمْ﴾ أي ما تبصرون به الهدى من الضلال والإيمان من الكفر، ثم ساق سنده عن ابن زيد قال: البصائر الهدى بصائر في قلوبهم لدينهم وليست ببصائر الرؤوس وقرأ ﴿فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى الْأَبْصَارُ وَلَكِن تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ﴾ [الحج: ٤٦]، وقال: إنما الدين بصره وسمعه في هذا القلب (٣)، فكلما كانت تلاوتك للقرآن أكثر وكان تدبرك له أتم كلما كانت بصيرتك أظهر وأقوى.

(١) لي كتاب بعنوان «المعجزة الباقية» ارجع إليه تجد فوائد كثيرة بإذن الله.

(٢) «فتح البيان في مقاصد القرآن» (٢١٦/٦) ط. دار الكتب العلمية.

(٣) «جامع البيان في تأويل القرآن» للإمام الطبري (٢٩٩/٥) ط. دار الكتب العلمية.

٤- إتقان العبادة والإكثار منها؛

العبادة غذاء القلب وزاده، وبها يقوى نوره وضيأؤه خاصة إذا أتقنها المرء وحقق فيها الإخلاص والخشوع وغير ذلك من حقوقها، قال الله تعالى: ﴿وَأَسْجُدْ وَاقْتَرِبْ﴾ [الجن: ١٩]، وفي الحديث القدسي قال ربنا جَلَّ جَلَالُهُ: «وما زال عبدي يتقرب إليَّ بالنوافل حتى أحبه، فإذا أحببته كنت سمعه الذي يسمع به وبصره الذي يبصر به، ويده التي يبطش بها ورجله التي يمشي بها وإن سألني أعطيته، ولئن استعاذني لأعيذنه»^(١)، ومعنى كنت سمعه الذي يسمع به.... إلى آخره أي أن الله تعالى يكون مسددًا له في هذه الأعضاء الأربعة، يسدده في سمعه فلا يسمع إلا ما يرضي الله وما فيه الخير والصلاح، ويعرض عما يغضب الله فلا يستمع إليه وكذلك يسدده في يده فلا يعمل بيده إلا ما يرضي الله وكذلك يسدده في رجله فلا يمشي إلا إلى ما يرضي الله فلا يسعى إلا إلى ما فيه الخير^(٢).

والمقصود -أيها الأحبة- أن العبادة الخالصة لله تجعل في القلب نورًا وتحدث فيه بصيرة وفهْمًا لأنها تقرب العبد من ربه وكلما كان العبد من الله أقرب كان بالحق أبصر وبدين الله أعلم، وتأمل كيف وصف رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ العبادات بهذا النور فقال عليه صلوات الله وسلامه: «الصلاة نور، والصدقة برهان، والصبر ضياء»^(٣).

وكلما ازداد الإيمان في القلب بزيادة الطاعات فيه زاد نوره وعظمت بصيرته يقول ابن القيم عليه رحمة الله: المؤمن قلبه مضئ يكاد يعرف الحق بفطرته وعقله ولكن لا مادة له من نفسه، فجاءت مادة الوحي فباشرت قلبه، وخالطت بشاشته فازداد نورًا بالوحي على نوره الذي فطره الله عليه، فاجتمع له نور الوحي إلى نور الفطرة، نور على نور، فيكاد ينطق بالحق وإن لم يسمع فيه أثرًا، ثم يسمع الأثر مطابقًا لما شهدت به فطرته فيكون نورًا

(١) رواه البخاري برقم [٦٥٠٢].

(٢) انظر «شرح رياض الصالحين» لابن عثيمين. (١/٤٤٩) ط. دار البصيرة

(٣) رواه مسلم برقم [٢٢٣].

على نور، فهذا شأن المؤمن يدرك الحق بفطرته مجملًا ثم يسمع الأثر جاء به مفصلاً فينشأ إيمانه عن شهادة الوحي وشهادة الفطرة^(١).

٥- غض البصر وكف الجوارح عن الحرام:

قال الله تعالى: ﴿قُلْ لِلْمُؤْمِنِينَ يَعْضُوا مِنْ أَيْدِيهِمْ وَيَحْفَظُوا أَرْوَاحَهُمْ ذَلِكَ أَزْكَى لَهُمْ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا يَصْنَعُونَ﴾ [النور: ٣٠].

يقول ابن القيم رَحِمَهُ اللهُ: النظر أصل عامة الحوادث التي تصيب الإنسان، فالنظرة تولد خطرة، ثم تولد الخطرة فكرة، ثم تولد الفكرة شهوة، ثم تولد الشهوة إرادة ثم تقوى فتصير عزيمة جازمة، فيقع الفعل ولا بد، ما لم يمنع منه مانع وفي هذا قيل: الصبر على غض البصر أيسر من الصبر على ألم ما بعده^(٢)، من المعلوم أن المعاصي تعمي القلب وتطفئ نوره يقول ابن القيم: المعاصي تفسد العقل فإن للعقل نورًا والمعصية تطفئ نور العقل ولا بد، وإذا تطفئ نوره ضعف ونقص، ثم قال: الذنوب إذا تكاثرت طبع على قلب صاحبها فكان من الغافلين كما قال بعض السلف في قوله تعالى: ﴿كَلَّا بَلْ رَانَ عَلَى قُلُوبِهِمْ مَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾ [الأنعام: ١٤]، قال: هو الذنب بعد الذنب، وقال الحسن: هو الذنب على الذنب حتى تعمي القلب، وقال غيره: لما كثرت ذنوبهم ومعاصيهم أحاطت بقلوبهم، وأصل هذا أن القلب يصدأ من المعصية فإذا زادت غلب الصدأ حتى يصير رأسًا، ثم يغلب حتى يصير طبعًا وقفلًا وختمًا، فيصير القلب في غشاوة وغلاف، فإذا حصل له ذلك بعد الهدى والبصيرة انتكس فصار أعلاه أسفله، فحيث يتولاه عدوه ويسوقه حيث أراد^(٣)، إن إطلاق البصر يشتم عزم القلب ويضعف الإيثار فيه وكذلك يضعف بصيرته كما قيل: من غض بصره أطلق الله نور بصيرته، وعكس ذلك صحيح فمن أطلق بصره

(١) «التفسير القيم» [٣٠٧] ط. الصفا.

(٢) «الداء والدواء» ص [٢١٣] ط. دار ابن رجب.

(٣) المصدر السابق ص [٩١-٩٢].

عميت بصيرته والمعاصي كلها والإغراق في الشهوات المحرمة تطمس البصيرة وتذهب نور القلب، وتأمل هذا المعنى في قول الله عن قوم أعمتهم شهواتهم وأصبحوا أسرى لها يتقلبون ليل نهار في سكرها، حتى عميت قلوبهم تماماً عن الحق وصراطه المستقيم إنهم قوم نبي الله لوط الذين قال الله تعالى عنهم: ﴿لَعُرْكَ إِنَّهُمْ لَفِي سَكْرَتِهِمْ بِعَمَهُونَ﴾ [التحجر: ٧٢]، والمقصود -أيها الأحبة- أن تطهير القلب من المعاصي يطلق نور بصيرته وكلما ازداد القلب طهراً كلما ازداد إشراقاً ونوراً وبصيرة.

٦- صدق الاتباع، واللهج بالدعاء؛

اتباع السنة ظاهراً وباطناً سبيل لانفتاح عين البصيرة، وزيادة النور في القلب دليل ذلك قول الله تعالى: ﴿يَتَأْتِيَهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَنفُسُ اللَّهِ وَأَمْنُوا بِرَسُولِهِ يُؤْتِكُمْ كِفْلَيْنِ مِن رَّحْمَتِهِ وَيَجْعَلْ لَكُمْ نُورًا تَمْشُونَ بِهِ وَيَغْفِرْ لَكُمْ﴾ [الجن: ٢٨]، وكذلك فليداوم العبد على التضرع والدعاء بأن يرزقه الله تعالى بصيرة في دينه، ومن وفق للدعاء فإن الإجابة قريبة حاصلة بإذن الله ومشيتته جَلَّ جَلَالُهُ، اللهم إنا نسألك يا من علّمت إبراهيم وفهمت سليمان أن ترزقنا فهماً دقيقاً، وإيماناً راسخاً، اللهم يا من خزائن رزقه لا تنفد ارزقنا بصيرة في ديننا وخذ بنواصينا إلى ما يرضيك عنا، وهيب لنا سبيلاً لبلوغ رضاك والفوز بجنتك، اللهم أحيينا على طاعتك، وأنعم علينا في الآخرة بالنظر إلى وجهك الكريم.

